عـادل حمـوده

الطبعة الثانية

خريف هيكل

أسطورة شاخت فى موقعها

منشورات
البندقية

خريف هيكل

أسطورة شاخت في موقعها

خريف هيكل
أسطورة شاخت فى موقعها

المؤلف
عادل حمودة

الإشراف العام
ياسر رمضان

التنفيذ الإلكترونى
قسم الإخراج بالدار

مراجعة وتدقيق
عبد العزيز السباعى

التوزيع داخل جمهورية مصر العربية والخارج:
كنوز
للنشر والتوزيع

رقم الإيداع: 2014 / 13472

الطبعة الأولى: يوليو 2014
الطبعة الثانية: يوليو 2014

مشورات البدمية

20 ش جواد حسنى متفرع من قصر النيل - القاهرة
tel & mo: 002023961698 - 00201227717795
E - mail: albondkia- press@yahoo.com

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر ولا يجوز نهائيًا نشر أو اقتباس أو اختزال أو نقل أى جزء من الكتاب دون الحصول على إذن كتابى من الناشر

خريف هيكل

أسطورة شاخت في موقعها

عادل حمودة

مشورات انبدمنة

تقرأ فى هذا الكتاب

(1) صديق ورفيق مشاكل لا تزال تجر أذيالها 9

مرسى يخبر هيكل برغبته فى الاحتفال بعيد ميلاده ومكتب الإرشاد يرفض- هيكل يغير عادته ويزور قبر عبد الناصر فى ذكرى رحيله ليقابل السيسى- حوار مع هيكل عن محاولة اغتيال مبارك فى أديس أبابا يثير العواصف، والكاتب الكبير يرسل برقية تهنئة لمبارك بمناسبة نجاته- مبارك لم يكن يحب هيكل ولايكرهه... فقط كان يحذره - أسامة الباز ينقل لى رسالة من مبارك يحذرنى فيها من هيكل- أشاد بى بعد خروجى من روز اليوسف ثم استنكر أن يكون الأهرام ملجأ لكل طريد من الصحافة بعد أن انتقلت إليها- نشر معلومات مغلوطة عن زيارة أوباما إلى القاهرة، ولما صححتها وصفوا ما كتبته بأنه انقلاب عليه.

(2) الجرأة على مراجعة المألوف والمعروف والنفس................. 33

اتهمت خصوم هيكل بأنهم يصفُّون حساباتهم معه فردوا: الأيام ستثبت لك صدق ما نقول- رفض أن يلقى كلمة فى حفل تكريمى فخرجت الصحف تقول إنه شعر أن لقب الأستاذ الذى يحمله استحقه صحفى آخر- دور إبراهيم المعلم الغامض فى حياة محمد حسنين هيكل- الثمن الذى حصل عليه من ظهوره على قناة الجزيرة وأسرار علاقته الخاصة بأمير قطر حمد وشيختها موزة- تفاصيل بيزنس أحمد هيكل مع القطريين- هيكل يفتح بيوته لقيادات جماعة الإخوان المسلمين

قبل ثورة يناير وبعدها- لماذا وصف هيكل السيسى بأنه متردد وبماذا وصفه أستاذ الطب النفسى الشهير أحمد عكاشة؟

(3) حكايات وشائعات وخرافات بلا وثائق أو مستندات 63

سر حماس هيكل لحزب الله رغم تحريض قائده حسن نصر الله على الجيش المصرى- حسين سالم يكذب رواية هيكل عن صفقة الغاز مع إسرائيل- هيكل يصرح بأنه لا يشرب الخمر رغم أنه عرف من الوهلة الأولى أن زجاجة النبيذ شاتولارتو 1949 - حسين سالم: هيكل يكره مبارك وينظر إليه على أنه فلاح سقط من السماء على عرش مصر - وقائع التحقيق الثانى مع هيكل أمام الكسب غير المشروع - المحقق يقرر حبسه ورئيس الجهاز يتدخل فى اللحظة الأخيرة- هيكل يطلب من الإخوان بعد موقعة الجمل عدم الانسحاب من ميدان التحرير ويحذرهم: مبارك سيسحقكم جميعا- كان شريكا للسادات فى قراره بالتحالف مع الإخوان بعد شهرين فقط من توليه السلطة- مهد لحملة تشويه جمال بمقاله «عبد الناصر ليس أسطورة» الذى نشره فى ذكرى الأربعين- قال لسامى شرف: ما تزعلش منى لكن إذا التاريخ عاد من جديد سأقف نفس الموقف مرة أخرى- محمد عبد السلام المحجوب يكذب روايته عن أشرف مروان.

(4) سيارة خربة تائهة فى صحراء................................ 97

لماذا رفض هيكل مبادرة السادات السلمية فى نوفمبر 1977 رغم قبوله مبادرة السادات السلمية 1971 بل شارك فى صياغتها؟- قصة مقاله « تحية للرجال» الذى أهان فيه الجيش المصرى قبل معركة العبور - تحدث عن مصر بعد 30 يونيو ووصف المصريين بأنهم تائهون فى صحراء - منح مصطفى حجازى لقب المفكر دون حيثيات فى مكافأة

له على مساندته لابنه حسن الهارب من مصر.

(5) أى شعب هذا الذى سيقوم بثورة ويقدم آلاف الشهداء؟.......... 131

سيمور هيرش ينشر حوارا خاصا دار بينهما فى القاهرة يكشف أن الكاتب الكبير يحتقر الشعب المصرى- وهيرش بعد أن أغلق هيكل الهاتف فى وجهه: هيكل الذى كنت أحترمه اختفى بعد أن سقط القناع عن وجهه- هاجم المجلس العسكرى بضراوة لكن بعد سقوط مرسى ذهب إلى السيسى ليجدد ثقته فى الجيش ودوره فى السياسة.

(6) طبيب فقد مشرطه يصر على القيام بعمليات جراحية............ 149

هيكل يفتقد فى أحاديثه التليفزيونية دقة المعلومات وعمق التحليل- فقد حساسيته فلا يعرف ما الذى يدور فى كواليس السياسة الأمريكية ولا موقف أمريكا من دول الربيع العربى.

(7) من جمال وعلاء إلى أحمد وحسن: 175

نشكركم على حسن تعاونكم

لم يؤمن بتجربة عبد الناصر لكنه اكتفى بالاستفادة منها- عاش فى بيته الريفى ببرقاش حياة مترفة وسط فقر مدقع- خرج على الناس بصور له فى ملعب الجولف وهى رياضة مكلفة لا يقدر على تحمل نفقاتها سوى نصف فى المائة من سكان العالم - هل ساهمت علاقات هيكل العربية وشهرته المصرية فى تنمية استثمارات وثروات أبنائه؟- كان يقدم نفسه على أنه معارض لنظام مبارك بينما أولاده شركاء لأبناء مبارك فى البيزنس والمكسب والمصلحة- أحمد هيكل دخل فى شراكة مع هيئة البترول فى مسطرد كانت مجالا للتحقيق فى النيابة -وحسن هرب إلى لندن على ذمة قضية جنائية هى بيع أسهم البنك الوطنى المصرى.

(8) ألعاب نارية وفرقعات صحفية لرجل جاوز التسعين 209

هيكل يتهم عمر سليمان بالتخطيط لاغتيال رئيس وزراء إثيوبيا ميليس زيناوى ثلاث مرات دون أن يقدم دليلا على ذلك- يعانى من عقدة المخابرات دون أن نعرف ما الذى تسبب فيها لديه- ينكر على رجال المخابرات أن تكون لديهم أى عملية ناجحة فى تاريخهم.

(9) حديث المستقبل بين متعة القصور وصمت القبور 225

عمل فى روزاليوسف لكن أرشيفها لا يذكر إلا مقاله «فى يوم عيدك يا مولاى» فى مديح الملك فاروق - إحسان عبد القدوس عنه: إنه يستولى على الرأس الكبير فى أى مكان - فتحى غانم لهيكل: أهلا بالرجل الذى فقد ظله، وهيكل يرد: أهلا بالرجل الذى فقد عقله- لم يكن مالكا لمؤسسة صحفية واحدة، لكنه بعد التأميم أصبح مسيطرا على غالبية المؤسسات الصحفية- شهادة مؤرخ محايد عن تجربة هيكل فى الصحافة والسياسة والحياة.

1

صديق ورفيق مشاكل
لا تزال تجر أذيالها!

تنفس محمد حسنين هيكل نسمة الحياة أول مرة فى 21 سبتمبر 1923.. وبحرص أولاده الثلاثة (على وأحمد وحسن) وزوجته السيدة هدايت تيمور، على أن يكون الاحتفال السنوى بعيد ميلاده احتفالا عائليا.. فرب البيت يؤمن بأن توسيع دائرة المشاركين فى هذه المناسبة الخاصة نوع غير مستحب من «الوثنية».

وفى كل عيد ميلاد يجد أولاده أنفسهم فى حيرة.. ما هى الهدية التى يقدمونها إليه وهو يمتلك كل شىء؟. وغالبا.. ما يلجئون إلى محلات أوروبية وأمريكية متخصصة فى بيع هدايا لا تخطر على بال الأثرياء الذين لا يجدون فى المحلات الأخرى ما يغرى بالتوقف والفرجة والشراء.

فى تلك المحلات لن تجد أشياء ثمينة.. لكنك ستجد أشياء غريبة.. فرشاة ذات ذراع طويل تصل لمنتصف الظهر.. مصباح صغير يعلق فى الكتاب بمشبك، يتيح القراءة فى الظلام دون الحاجة لمصدر معتاد من الضوء يزعج شريك الغرفة.. قاطع سيجار غير معتاد.. مثلا.

واحتراما لتفسيره بوثنية عيد الميلاد فإن هيكل يذهب إلى ضريح جمال عبد الناصر فى ذكرى وفاته.. يوم 28 سبتمبر.. ويعتذر عن الذهاب فى ذكرى ميلاده.. يوم 15 يناير.

تعّود هيكل أن يذهب إلى الضريح مبكرا وينصرف مبكرا قبل أن تأتى عائلة جمال عبد الناصر ويأتى محبوه ومريدوه والمؤمنون به.. لكن عندما علم هيكل أن عبد الفتاح السيسى سيأتى ويقرأ الفاتحة على الزعيم الخالد، انتظره.. ووقف فى استقباله.. نافيا بذلك ما يقال عن حفاظه على عاداته مهما ضغطت ظروف.. وفرضت ضرورات.

ولو كان السيسى قد نجح بسهولة فى تغيير عاداته فإن محمد مرسى يكون قد نجح بنفس السهولة فى تغيير معتقداته.

قبل أسبوع تقريبا من عيد ميلاده التاسع والثمانين تلقى هيكل اتصالا من ياسر على المتحدث باسم رئاسة الجمهورية عارضا عليه قبول دعوة «الرئيس» للاحتفال بعيد ميلاده.. يوم 21 سبتمبر 2012.. وطلب منه اختيار ما بين 25 و30 شخصية من المقربين منه ليشاركوه الاحتفال الذى سيقام فى قصر الاتحادية.. وتقبل هيكل الدعوة شاكرا ومرحبا.. متناسيا فى الوقت نفسه أن الاحتفال بعيد الميلاد فى هذه الحالة وحسب معتقداته سيكون بالتأكيد احتفالا وثنيا.

وراح هيكل يعرض على صحفيين وروائيين وسياسيين بينه وبينهم مساحة عريضة من الود المتين أن يشاركوه هذا الاحتفال الفريد من نوعه وهو على وشك دخول عامه التسعين.. وبعد أن اختار القائمة بعناية انتظر مكالمة أخرى من الرئاسة لتحديد التوقيتات والترتيبات.. لكن.. المكالمة لم تأتِ.

حسب ما عرفت من أحد الأمناء فى القصر الجمهورى فإن نائب رئيس الديوان أسعد شيخة نقل الخبر إلى مكتب الإرشاد.

وعلى الفور رفضت الفكرة.. فقد اعتبرت نفاقا مخزيا لرمز بارز.. محسوب على الناصرية المعادية لتوجهات الجماعة.. «ولو كان على الرئاسة أن تتعامل معه وتستفيد منه فليكن ذلك بعيدا عن مثل هذه المناسبات التى تعتبرها التيارات السلفية والجماعات المتشددة المساندة للإخوان «وثنية» فعلا.. بما فى ذلك الاحتفال بالمولد النبوى الشريف».

كانت خشية مكتب الإرشاد أن يكسب الإخوان هيكل ويخسروا حلفاءهم الأقوياء من مطلقى اللحى.. ومتطرفى الفتاوى.. وحاملى السلاح.. ومفجرى القنابل.

وتجاوز هيكل عن وصف «الوثنية» مرة أخرى عندما دعاه السيسى بعد عدة أيام للاحتفال بعيد ميلاده فى مكتب من مكاتب القائد العام- وفى ساعات قليلة شعر سكان العمارة التى يسكنها هيكل على النيل، بالقرب من شيراتون القاهرة، بحركة أمنية غير عادية.. فقد جاء رجال السيسى ليصطحبوا هيكل إلى مكان الاحتفال بعيد ميلاده.. لكن.. بمفرده.. ودون صحبة من أتباعه ومريديه يختارهم للمشاركة.

ولا بد أن سكان العمارة أصابتهم الدهشة من تردد رجال السيسى على هيكل.. فقد سبق لهم أن شاهدوا قيادات من الجماعة تتردد عليه.. فكيف يجمع المتناقضات بكل هذه السهولة.. والبراعة؟

لكن.. لم تصب تلك الدهشة قدامى السكان.. فقد تعودوا منذ جاوروا هيكل أن يصادفوا شخصيات تعبر عن عصور سياسية مختلفة.. ومتصارعة.. ليكون السؤال عن موهبة هذا الرجل فى القفز من سلطة إلى سلطة.. ومن سفينة إلى سفينة دون أن يصاب ببلل أو بأذى.. إلا قليلا.

لكن.. تحولات هيكل من نظام إلى نظام لم تكن مكشوفة من قبل كما حدث مؤخرا.. وهناك أسباب متعددة تبرر ذلك الانكشاف.

إن الانتقالات التى كانت تجرى فى السلطة لم يكن يعرف عنها أحد إلا ما يسمح به فى البيانات الرسمية.. أو ما يكشفه هيكل فى مقالاته.. فيما بعد.. وهذا ما تلاشى الآن فى ظل وسائل إعلام يستحيل السيطرة عليها أو حجبها أو التحكم فيها.. فضائيات تبث من أقمار صناعية سابحة فى السماء بحرية.. شبكات للتواصل الاجتماعى تبادر وتسبق بما لديها من أخبار دون رقيب أو حسيب.. ومواقع إنترنت تسجل وتحتفظ بما يصل إليها من معلومات وشهادات وكتابات يصعب حذفها.. تظل ذاكرة حية إلى يوم الدين.

إن الانتقالات التى جرت فى السلطة فيما قبل كانت على فترات متباعدة.. فقد بقى عبد الناصر فى الحكم 16 سنة.. وبقى السادات فى الحكم 10 سنوات.. وبقى مبارك فى الحكم 30 سنة.. وهى مسافات زمنية عريضة إلى حد كبير.. تسمح لمن يريد أن يتحول من خدمة سلطة ذهبت إلى خدمة سلطة جاءت أن يتسلل خطوة خطوة.. بهدوء.. ودون انكشاف.. فالوقت فى صالحه.. لكن الانتقالات التى جرت فيما بعد لم تمنح المتحولين ميزة الوقت.. فانكشفوا بسرعة مذهلة.. لقد بقى محمد مرسى فى الحكم سنة واحدة.. سقط بعدها وأصبح سجينا بعد أن كان رئيسا.. ولم يمتلك من خدموه ثم انقلبوا عليه فرصة كافية لتبرير ما فعلوا.. من كانوا معه ثم أصبحوا مع السيسى الذى أطاح به وجدوا أنفسهم على مسرح مفتوح لم يقدروا وهم على خشبته ولضيق الوقت أن يغيروا الأدوار ويبدلوا الثياب ويبحثوا عن جمل حوار مختلفة وأمامهم جمهور يقظ.. فاهم.. يصعب «استغفاله» من جديد.

■ ■ ■

القائمة طويلة.. فيها التلفزيونى عمرو الليثى.. وصاحب قناة المحور حسن راتب.. ومدير دار الشروق إبراهيم المعلم.. ورجل الأعمال أحمد أبو هشيمة.. مثلا.. ويقف على الرأس فى أول الطابور هيكل نفسه.

لقد كان عمرو الليثى عضوا فى لجنة الإعلام بالحزب الوطنى قبل أن يعلن انسلاخه من نظام مبارك فاتحا برنامجه التلفزيونى فى انحياز واضح لرموز الإخوان فاختير مستشارا إعلاميا لرئيسهم محمد مرسى الذى خصه بالحوارات التلفزيونية بجانب زيارات شخصية وعائلية فى بيته.

وعندما راح بركان 30 يونيو يخرج لهيبه الساخن تمهيدا لانفجار حممه الحارقة كان الإعلامى المتقلب شديد الثقة فى أن النظام الذى راهن عليه لن يسقط.. وأن ما يظهر على السطح من أعراض ثورة جديدة هى أوهام عقلية تختلط بأحلام يقظة.

وحسب معلوماته فإن قيادات فى الجيش لا تزال تؤيد مرسى ببرقيات تهنئة أرسلت إليه بمناسبة مرور عام على توليه الحكم.. دون أن يدرك الفرق بين ما هو شكلى وما هو حقيقى.

كما أن مكالماته الهاتفية مع أبناء مرسى لو كشف عما دار فيها فإنه لن يجد من زملاء المهنة من يقبل عليه بترحاب.

وفى الوقت نفسه وجد من باب الحرص أن يترك مصر فى تلك الأيام الحرجة ليقضيها فى مكة والمدينة تحت جناح العمرة.. لكن العمرة التى لا تزيد عادة على أسبوع امتدت إلى شهر.. ظل هناك فى انتظار استقرار الحال.. أراد أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود قبل أن يعيد ضبط بوصلته على نظام الحكم الجديد.. أعطى لنفسه فرصة كافية للسباحة بين مركب تغرق ومركب تطفو فى انتظار اللحظة المناسبة لركوب المركب الجديدة.

وفى الوقت نفسه لم يورط نفسه فى الكتابة عن ما يحدث.. مكتفيا بالكتابة عن شخصيات مؤثرة فى التاريخ الإسلامى.. منتهى التقوى.. منح نفسه بمقالاته عن حكام مسلمين عادلين الفرصة للتفكير فى الطريقة المناسبة التى يقدم بها خدماته للسلطة الجديدة المنتصرة.

والمؤكد أنه بما يملك من مواهب شخصية متميزة ومعروفة ومختبرة نجح فى ذلك.. فقد وجدته مدعوا إلى حفل القوات المسلحة على مسرح الجلاء بمناسبة الذكرى الثالثة

لثورة 25 يناير.. بينما لم يُدعَ رجل مثل ممدوح حمزة ساهم بجدية وفاعلية فى تلك الثورة.. والثورة الأخرى التى صححتها فى 30 يونيو.. وكأننا ما زلنا مصابين بالحول السياسى.. لا نفرق بين من نجده وقت الشدة وبين من لا يتقرب إلينا إلا وقت النعمة.

نفس الدعوة إلى حفلات القوات المسلحة وجهت إلى حسن راتب الذى اكتشفنا وقت أن ركب الإخوان السلطة أن اسمه الأول حسن البنا..على اسم مؤسس الجماعة.. حسن البنا.. لكنه.. فى زمن مبارك حيث كون ثرونه وشهرته ومكانته اكتفى بنصف الاسم.. حسن.. متجاهلا عن عمد اسم البنا.. ليعود وينفض التراب عنه فى زمن مرسى.. على أنه لم يستمتع به طويلا.. فقد سقط مرسى.. فأخفى البنا من اسمه الكامل من جديد.

وفى زمن مبارك كان حسن (البنا) راتب يقاتل بشدة من أجل أن تنقل شبكة قنواته التلفزيونية (المحور) جلسات مؤتمرات الحزب الوطنى.. ودفع مقابل ذلك الكثير من التبرعات السخية.

وأذكر أننى قبل سقوط مبارك هاجمت النظام على شاشة المحور فى حوار مع معتز الدمرداش فمنع الرجل إعادة البرنامج حسب المعتاد صباح اليوم التالى وتكلم بنفسه فى اليوم التالى بما يشبه الاعتذار عن ما قلت.

لكن.. ما أن ظهر الإخوان على السطح حتى أغدق عليهم بكرم زائد عن الحد ملايين الجنيهات أسفا.. وندما.. وفتح قصوره لقيادات الجماعة فى الداخل والخارج تاركا لهم الفرصة كاملة للتمتع بمباهج الحياة.. على حسابه.

وبعلاقته القوية بمرشد الجماعة السابق مهدى عاكف أصبح حسن راتب الوسيط المعتمد بين الجماعة ورجال الأعمال.. كل من يرضى عنه منهم يأخذه إليها.. وكل من يغضب عليه منهم يبعده عنها.

وبعد طول كتمان كشف حسن راتب أن والده كان عضوا فى تنظيم الإخوان.. وبعد أن قبض عليه تكفلت الجماعة بإطعام أسرته.. وتوفير الخبز والحليب لها.. وربما أيضا توفير العمل فى السعودية له.. وربما كذلك مشاركته فى البيزنس الذى عاد به إلى مصر دون أن نعرف مصدر «خميرة» رأس المال التى بدأ بها مشروعاته.

وما أن سقطت جماعته حتى تحول الرجل بسهولة وسلاسة إلى السلطة الجديدة.. السلطة التى كان يصفها قبل السقوط بالسلطة العسكرية.. أصبحت الآن سلطة شعبية.. ضرورية.. مدنية.. وديمقراطية لو شئنا.. أو لو لزم الأمر.

وأمام الأزمة التى تعانى منها قناة «المحور» التى يمتلكها وافق على مشاركة أحمد أبو هشيمة فى ملكيتها بنحو ثلاثين مليون جنيه.. لكن.. التخوف من الصلات الوثيقة بين أبو هشيمة وقطر جعله بضغوط ما يتراجع عن المشاركة.

وكان إبراهيم المعلم من رجال سوزان مبارك.. لعب لها الدور الأكبر والمباشر فى تحقيق مشاريعها الثقافية.. مشروع القراءة للجميع.. ومشروع كتب الأطفال.. وكل الجوائز التى حصلت عليها دار النشر التى يديرها دار الشروق أهداها إلى السيدة الأولى وحملها إليها وهو يكاد يطير فى الهواء فرحا ومنتشيا.. منتظرا اختياره وزيرا.. لكن.. أكبر منصب عرض عليه.. نائب وزير الشباب.. وقد رفضه.

وللتاريخ فإن علاقة المعلم بسوزان مبارك تعود إلى زمن كان فيه زوجها لا يزال نائبا للرئيس.. فقد كانت تدعى إلى بيت حماه الدكتور كمال أبو المجد بترحيب من زوجته السيدة سهير.. وفى تلك الدعوات كان المعلم بحكم أنه زوج أميرة ابنة أبو المجد موجودا ومرحبا.

وبعد وفاة حفيدها محمد كتبت سوزان مبارك كتابا تحدثت فيه إلى الصبى الذى ذاق الموت مبكرا وهو فى عالم آخر.. بعيد.. وسارعت دار نشر أمريكية بالتعاقد معها لنشر الكتاب.. وخصت تلك الدار الجامعة الأمريكية فى القاهرة بطبعة إنجليزية توزع فى مصر وما حولها.. على أن تكون الترجمة العربية من نصيب المعلم الذى سخر لها كل ما لديه من قدرات تحريرية.. وإمكانيات فنية.

وحسب ما سمعت من مدير النشر السابق فى الجامعة الأمريكية مارك لينز قبل وفاته وحرق رفاته ونثرها فى النيل حسب وصيته: إن سوزان مبارك دعته هو وإبراهيم المعلم ووزير الإعلام وقتها أنس الفقى إلى بيتها لمناقشة الترتيبات النهائية للكتاب.. جلست معهم فى غرفة الطعام.. وطلبت بأن يكون الغلاف وصفحات بداية الفصول من الذهب.. ونظرت إلى حائط الغرفة قائلة: «ذهب فى لون الحائط». ثم استطردت:

«لا.. أريد ذهبا عيار 24 قيراط».. وانهت الطلب قائلة: «ولا أنا ما استحقش؟».. وهز إبراهيم المعلم رأسه مبتسما ومرحبا.

وأبدى أنس الفقى رغبته فى شراء نسخ من الكتاب بنحو 700 ألف جنيه، فتساءل مدير النشر الأمريكى: هل سيدفعها من جيبه أم من جيب وزارته؟

وقبل أن ينتهى الاجتماع روجعت ترتيبات حفل توقيع الكتاب الذى تقرر أن يكون يوم 27 يناير 2011.. ولكن.. الثورة التى اشتعلت قبل الموعد بيومين أجلت الحفل.. وبسقوط زوجها تأجل الكتاب.

بعد الثورة سارع إبراهيم المعلم بجمع كل ما يمت للكتاب بصلة وأخفاه فى مكان لا يعرفه غيره.. وربما حرقه.. وهو ما جعل فريد الديب محامى عائلة مبارك يطالبه قانونا بأصول الكتاب بعدما خفت حدة الانتقادات للرئيس الأسبق.

بسرعة نفض المعلم عن نفسه غبار النظام السابق.. وسارع بتشكيل لجنة حكماء الثورة.. وفتح قاعات مبنى صحيفته التى تحمل نفس الاسم (الشروق) لاجتماعاتها.. ومن سخرية القدر أنه تحدث فى برنامج تلفزيونى قائلا فى حدة وبراءة: «إن مشكلة نظام ما بعد الثورة أنه لم يتخلص من رجال ما قبل الثورة».. ولم يجد من يطالبه بأن يطبق ذلك على نفسه.

ولم يتردد فى التقرب من الإخوان.. بل يمكن القول إنه وجد فى تلك الجماعة ما لقى فى نفسه الكثير من الهوى بحكم التأثر بوالده محمد المعلم.

لكنه سرعان ما لفظ الإخوان وتقرب من جديد إلى السلطة التى أزاحتهم وفرضت وجودها بعد 30 يونيو.. والمذهل.. أنه نجح فى ذلك.. فقد وجدته ضيفا مرحبا به فى مناسبات متعددة دعت إليها تلك السلطة الرموز المختلفة لحضورها.

وفى بعض هذه المناسبات وجدت أيضا أحمد أبو هشيمة نموذج آخر للتحولات الحادة.. والانقلابات الحادة.. لقد خرج إلى سطح الثروة دون أن نجد فى الجذور ما يؤهله لذلك!. وبزواجه من النجمة اللبنانية هيفاء وهبى أصبح شهيرا.. وسرعان ما فتحت له هذه الشهرة أبواب النعيم.. فقد وجد جهات قطرية تشاركه فى استثمارات الحديد. والأخطر.. استثمارات الميديا.. وكانت الواجهة القطرية شخصًا يدعى محمد بن سحيم.

وخلال سنوات الحكم الأخيرة لمبارك ساند أبو هشيمة وجوده بشخصيات أمنية مؤثرة.. تخلص منها فور أن جاء الإخوان إلى السلطة.. فانتقل إلى الجماعة عارضا خدماته.. وتوثقت الصلة بينه وبين رموزها المالية.. مثل حسن مالك وخيرت الشاطر.. لكن.. أبو هشيمة سرعان ما أنكر صلته بها فى نفس لحظة سقوطها.. وسعى بتبرعات سخية إلى مد جسوره إلى شخصيات لها نفوذها فى السلطة الجديدة.

لقد سعى أبو هشيمة جاهدا للتقرب من جمال وعلاء مبارك.. وتفاخر بأنه يلعب كرة القدم معهما.. وكانت تمريرات الكرة بين أقدامهم دلالة على نفوذ يتمتع به نجم البيزنس الصاعد.

ولكن.. ما أن خرج خيرت الشاطر من السجن معبرا عن مرحلة جديدة حتى سارع أبو هشيمة بالذهاب إليه فى بيته عارضا عليه خططه الصناعية منتظرا إضفاء البركة عليها.

وبعلاقته بأبناء حسن مالك شهبندر تجار الإخوان نجح أبو هشيمة فى أن يضع اسمه فى قائمة رجال الأعمال المسافرين مع مرسى إلى الصين.. وعندما بدأت ترتيبات زيارة مرسى إلى نيويورك متحدثا أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة سبقه أبو هشيمة إلى هناك دون دعوة.

ومن باب الود العائلى سمح أبو هشيمة لقيادات إخوانية بدخول صالة الألعاب الرياضية فى بيته بالقاهرة الجديدة ليستمتعوا بفنون الاسترخاء والمساج.

وما لفت النظر فى مسيرته أنه فى ظل حكم الإخوان طلق هيفاء وهبى.. وفتح ذلك الطلاق المفاجئ الباب أمام تكهنات واجتهادات وصفت ذلك الطلاق بطلاق سياسى.. وتحدثت شائعات عن تسوية مالية بملايين من الدولارات جعلت الطلاق يقع دون خلافات.. لكن.. ذلك لم يكن صحيحا.

وفى كل مراحل صعوده غير المبرر كانت عينه على الإعلام.. فاشترى نسبة حاكمة فى «اليوم السابع».. وتسلل إلى قناة المحور.. لكن.. جرى تحذير صاحبها.. فأعاد إليه ثلاثين مليون جنيه كان قد دفعها.

وحاول أن يجد بديلا لقطر فسافر إلى الإمارات.. لكن.. لم يسمح له بدخولها عبر مطار دبي.. وأعيد على طائرة أخرى اتجهت إلى مطار «برج العرب» ليس عليها درجة سفر مميزة باعتباره شخصا غير مرغوب فيه.. وهو موقف واضح لا نجد له مثيلاً عند أصحاب التأثير في بلادنا.

■ ■ ■

لكن.. كل هذه القائمة في جانب.. وهيكل في جانب آخر.

لقد ارتبطت بعلاقة صداقة قوية بيني وبينه.. امتدت أكثر من عشرين سنة.. ونشرت كتابا عنه بعنوان «هيكل: الحياة والحب والحرب».. وجمعت بعضا من حواراته معي في كتاب آخر صدر بعنوان «لعبة السلطة في مصر».. فما الذي يدفعني الآن للاختلاف معه أو رؤية وجها آخر له؟. ما الذي جعلني أراه بعيون أخرى غير التي رأيته بها؟. ما الذي حرضني على التوقف طويلا عند تحولاته وانعطافاته وتغيراته؟

يبدأ هيكل كتابه الجذاب والممتع «زيارة جديدة للتاريخ» بإهداء شجعني على ما فعلت: «إلى هؤلاء الذين يملكون الجرأة على مراجعة المألوف والمعروف.. وأنفسهم».. وتصورت أنني أمتلك الجرأة على مراجعة ما ألفت وعرفت عنه.. بجانب مراجعة النفس.. عملا بنصيحته المنشورة علنا.

وتشجعت أكثر عندما وجدته يقبل بدور الناصح لأصدقائه رغم صعوبة مثل هذا الدور.

فحسب ما كتب في مقال نشره في 4 نوفمبر 1996 في صحيفة «يوميوري شيمبون» اليابانية عن الدكتور بطرس بطرس غالي فإن «من أصعب المواقف أن يتطوع رجل بنصيحة لرجل آخر لم يطلبها، والأصعب أكثر إذا كانت هذه النصيحة متعارضة مع هواه وربما مصلحته كما يراها، وتصبح الصعوبة بالغة إذا جاءت النصيحة في ظرف معقد يتوقع فيه أي صديق من صديقه أن يقف بجانبه دون مساءلة فإذا لم يستطع فعلى الأقل يبتعد».

كانت نصيحة هيكل إلى صديقه بطرس غالي (الكبير) أن لا يعيد ترشيح نفسه لمنصب الأمين العام للأمم المتحدة.. وتوافقت النصيحة مع رغبة شديدة وملحة وضاغطة من

الولايات المتحدة.. ورغم تحفظ هيكل على توجيه النصيحة لصديق فإنه قدمها إليه بالفعل.. بل.. وأبعد من ذلك.. نشرها علنا.. ولم يتوجه بها إليه سرا.

وسيرا على خطى هيكل قررت أن تكون نصيحتى إليه بنفس الوسيلة.. النشر علنا.

يضاف إلى ذلك أن هيكل نفسه كتب مقدمة كتابى «لعبة السلطة فى مصر» متحمسا لفكرة السؤال وأهميته قائلا:

«إن (هذا) الكتاب حوار.. والعنصر الرئيسى فى أى حوار ليس الجواب وإنما السؤال وبالتالى فإن صاحب الحوار الحقيقى هو صاحب السؤال وليس هو صاحب الجواب.. فالسؤال هو الذى اختار الموضوع واختار التوقيت واختار أسلوب العرض بما فى ذلك مواقع التركيز ومواقع التفصيل».

ويستطرد هيكل: «إن كون هذا الكتاب سؤالا أو مجموعة أسئلة فخير ما تقدمه له استلهام تلك الحكمة القديمة التى تقول: «إن السؤال هو جوهر الفلسفة» وذلك تعريف دقيق، فالفلسفة بالفعل سؤال ملح فى طلب المعرفة وفى البحث عن الوجوه المختلفة للحقيقة».

«وأظن أن المجتمعات تظل بخير طالما هى متمسكة بـ «السؤال».. تسأل عن عالمها وزمانها وتسأل واقعها وظروفها وتسأل نفسها وغيرها ثم لا تفتر همتها أو ينثنى عزمها عن التفكير فى أسئلة جديدة بلا حدود أو قيود غير الحرص على أن تبقى الأسئلة موصولة بالحياة وغير معزولة عنها».

«وبما أن الميزة الأساسية فى الشخصية المهنية للصديق الأستاذ عادل حمودة أنه رجل يحمل «سؤاله» معه أينما ذهب.. والواقع أنه إذا كان السؤال «هو جوهر الفلسفة» فهو أيضا صميم مهنة الصحافة فى آخر طبعاتها.. فالصحافة - خصوصا فى الغرب أوروبا وأمريكا - تتجه فى معظمها الآن إلى ما يسمونه مدرسة «الصحافة السائلة».. وهى مدرسة تؤمن بأن الصحافة سؤال.. وهذا صحيح إلى أبعد مدى».

«والصحيح قبله أن الحياة سؤال وأن الفلسفة سؤال وأن الحقيقة سؤال. أما الإجابات فهى اجتهادات بعضها يصل إلى هدفه وبعضها سهام تطيش فى الفضاء».

واستجابة لما تفضل به وما تحمس له تصورت أننى يمكن أن أطرح ما فى داخلى من أسئلة عليه.. نشرتها فى صحيفة «الفجر» يوم الخميس 9 يناير 2014.. لماذا ذهب إلى محمد مرسى؟. ما مبررات حماسه لجماعة الإخوان رغم العداء القديم بينه وبينها؟. كيف طاوعته خبرته ليقوم بمبادرة صلح بين الجماعة الحاكمة والقوى المدنية المعارضة؟. كيف انتقل بسهولة ويسر ودون تفسير أو تبرير من مرسى إلى السيسى رغم ما بين الرجلين من اختلافات وخلافات؟. وأسئلة أخرى سنكشف عنها.. فيما بعد.

وفى كل كلمة كتبتها عنه لم أمسه بسوء.. بل.. على العكس.. اعترفت بقدرته وحفظت مكانته.. ومنحته أعذارا عن أخطاء ارتكبها لا يجوز لمثله الوقوع فيها.. لكن.. قبل أن أثبت ذلك.. أتوقف كثيرا عند رد فعل ما نشرت.

أكاد أجزم أنه كل من قرأ ما كتبت أصيب بدهشة غير مصدق أن هناك من تجرأ وهاجم هيكل.. واشترك فى ذلك من أعجبوا وتحمسوا.. ومن استنكروا واشمأنطوا.. فكل شخصية مهما ارتفع شأنها تعرضت للنقد.. دون تعجب.. بما فى ذلك الأنبياء والزعماء.. إلا هيكل.. كأنه الوحيد المحصن والمصون.. خاصة فى سنوات ما بعد مبارك.. إلا قليلا.

■ ■ ■

فى سنوات حكم مبارك فتحت عليه نيران مؤذية من كتّاب فى السلطة.. بطريقة مثيرة للاشمئزاز.. مما أجبر كل من أراد مناقشته مناقشة موضوعية ومحترمة على التراجع عن الكتابة.. خشية اتهامه بالمشاركة فى تلك الحملات المسيئة.. المتجاوزة.. ونظرا لطول المدة التى حكم فيها مبارك.. نحو 30 سنة.. فإن تعفف الكتاب المستقلين ولو كانوا أصدقاء له عن الاختلاف مع هيكل منحه تلك الحصانة.

بل.. أكثر من ذلك وجد الكتاب المستقلون أن عليهم لو كان باستطاعتهم منح هيكل فى ظل الحصار المفروض عليه فرصته للتعبير عن رأيه.. ولو دفعوا فى المقابل الثمن.. إنها قاعدة أخلاقية مهنية طبيعية.. لا نهاجم رجلا لا يملك فرصة الرد.. بل ساعده على أن يعبر عن نفسه.. لا تقتل فارسا سقط من على جواده.. امنحه الفرصة للعودة إليه.. وهو ما حدث.

فى فبراير عام 1992 توليت مسئولية تحرير روز اليوسف.. ويشهد كل من ساهم وتابع تلك المجلة السياسية العريقة منذ ذلك الوقت وحتى أجبرت على تركها فى إبريل عام 1998 أن التجربة التى خضتها سجلت لنفسها موقعا متميزا فى تاريخ الصحافة المصرية.

تأثرت بها مهنيا صحف أخرى خاصة وقومية.. كما أنها اقتحمت محرمات سياسية ودينية وتعاملت معها بجرأة قفزت بتوزيع المجلة من 6 آلاف نسخة إلى نحو 120 ألف نسخة.. والأهم.. أن التجربة خرَّجت دفعة جديدة من الصحفيين قادوا فيما بعد مؤسسات إعلامية (صحفية وتلفزيونية).. مثل إبراهيم عيسى ووائل الإبراشى وعمرو خفاجى ومحمد هانى وإبراهيم منصور وإبراهيم خليل وأسامة سلامة وجمال طايع وعصام عبد العزيز ومحمد الصباغ.. بل.. وعبد الله كمال.. وإن انحرف بعيدا عن ما تعلم.

فى ذلك العام مُنع هيكل من الحديث إلى رواد معرض الكتاب بعد أن تزاحم المئات على ندوته.. ودون تردد استضفته فى روز اليوسف.. فى حوارات متتالية.. تلك التى جمعتها فى كتاب «لعبة السلطة فى مصر».. أكثر من ذلك فتحت له أبواب قاعة الندوات ليتحدث وسط جمهور تزاحم بشدة لسماعه.

ومن بعيد جاءت التحذيرات.. «أنت تلعب بالنار».. «أنت تضع أصبعك فى عين النظام».. «إن مبارك لا يطيق هيكل فلا تستفزه محطما مستقبلك فى تولى رئاسة تحرير «روز اليوسف» أو غيرها».. «حرام أن تهدر فرص صعودك بسبب كاتب لن يتذكر ما فعلت عندما يسترد عافيته».. لكنى لم أستمع.. ولم أتراجع.. وهيكل يعرف ذلك جيدا.

وما أن نجا مبارك من محاولة اغتياله فى أديس أبابا (يوم الأحد 25 يونيو 1995) حتى استضفت هيكل فى حوار جرّ علىّ من المتاعب ما تجاوز مرحلة التحذير.

نشر الحوار تحت عنوان اعتبر «أجرأ مانشت صحفي» وضع على غلاف مطبوعة فى نصف قرن: «ماذا لو اغتيل مبارك فى أديس أبابا؟».. وأجاب هيكل على السؤال قائلا: «سيدخل الجيش ويأخذ السلطة.. فليس لدينا نائب رئيس.. والحكومة القائمة لا تتمتع بمصداقية.. الوضع المتوقع أن يمد الجيش ذراعه ويأخذ السلطة.. والجيش منطقة محرمة.. لا نتكلم عنها.. ولا نعرف ما فيها.. ومن ثم فصورة الحكم القادم فى هذه الحالة.. مجهولة.. وهذه هى الكارثة».

ووصف هيكل مبارك بالتردد بين الدولة المدنية والدولة الدينية.. واعتبر الموجة العاطفية التى عبرت بها فئات الشعب عن فرحها بنجاة الرئيس تعبيرا عن قلق من مجهول قادم لو حدث لرأس الدولة مكروه.

وطالب هيكل مبارك بالتغيير وفى الوقت نفسه قال عنه إنه يتمتع «بجاذبية ومصداقية».. «كما أنه الوحيد القادر على الفعل لأن التغيير بدونه مستحيل إلا بالعنف».

وكان هيكل قد أرسل لمبارك برقية قال له فيها: «إن أكثر الناس الذين يخالفونه هم أكثر الناس حرصا عليه».

وأضاف هيكل قائلا: «إن مبارك بالنسبة لى المفتاح الطبيعى للتطور السلمى.. لا طريق آخر (غيره) للتطور السلمى».

واعترض هيكل على دعوات الحرب ضد السودان باعتبارها الدولة التى آوت الإرهابيين الذين دبروا عملية اغتيال مبارك.. قائلا: «لقد دخلنا فى حروب لا مصالح لنا فيها.. مثل حرب أفغانستان.. وصراع القرن الإفريقى.. فلا مبرر لزيادة ما ترتب على تورطنا فى تلك الحروب الخاطئة بمزيد من المتاعب والخسائر».

وما أن نشر الحوار حتى لخصته ونشرت أهم ما فيه وكالة رويترز الشهيرة للأنباء.. وفى الوقت نفسه انتقلت مدافع النار من ناحية هيكل إلى ناحيتى.. وراح رئيس تحرير الجمهورية سمير رجب يكيل من السباب ما يتجاوز مواهبه المشهود بها فى مجالات السب والقذف.

واختار مبارك رئيس تحرير الأهرام إبراهيم نافع ليتحدث إليه فيما وصف بأنه رد على ما قاله هيكل فى «روز اليوسف».. وإن كان الخلاف هذه المرة محترما وراقيا.

وفى مجلة أكتوبر فتح الدكتور عبد العظيم رمضان النيران على هيكل فى أربعة مقالات نشرها تحت عنوان «هيكل والكهف الناصرى».. وتحمست هيئة الكتاب لنشرها فى كتاب ولكن حجم المقالات لم يكن يكفى فطلب من صاحبها أن يزيد ويتوسع لكنه كان فى طريقه إلى لندن فاعتذر.. غير أن طلب مبارك كان عاجلا لا ينتظر عودته.. فتقرر أن تكون الإضافة من كاتب آخر.

لكن.. فى الوقت نفسه حدث شىء لم يخرج إلى السطح.. دعانى الدكتور أسامة الباز مع مجموعة أخرى من الشخصيات السياسية والصحفية إلى حوار مع الزعيم الفلسطينى ياسر عرفات اختار مكانا له مطعم «الكبابجى» فى شيراتون الجزيرة (سوفتيل فيما بعد) ثم انفرد بى قائلا:

«إن مبارك غاضب جدا من حماسك لهيكل وفتح صفحات روز اليوسف بكل هذا الاتساع لحواراته.. والأشد خطورة أنه يعتقد أن لهيكل تنظيمًا فى الصحافة المصرية أنت أهم أركانه».

وعندما وجدنى صامتا لا أجد ما أقول من الدهشة أضاف: «لكننى قلت له مدافعا عنك أن هيكل هو شيخ مهنة الصحافة يذهب إليه الصحفيون للاستفادة من خبرته.. وليس فى الأمر تنظيم أو مؤامرة».

وسألت المستشار السياسى للرئيس عن مصدر تلك التهمة فأجاب: «تقارير أمنية رفعت للرئاسة.. ووجدت هوى فى نفس مبارك».

وواصل الدكتور أسامة الباز قائلا: إن مبارك لا يحب هيكل ولا يكرهه.. لكنه.. بعد أن فوجئ بما كتب هيكل ناشرا عرض السادات (فى كتاب «خريف الغضب») بدأ يأخذ حذره منه.. مكررا المثل الشائع «يا نحلة لا تقرصينى ولا أريد عسلك».

وأنهى أسامة الباز كلامه الخاطف مضيفا: «إن الرئيس يخشى عليك من هيكل.. فهو يجيد استخدام كل ما حوله.. ثم ينفض يديه منه إذا ما تضاربت مصالحه أو انقضت حاجته».

وفى فورة التحدى لم أعبأ بما سمعت.. وواصلت حواراتى مع هيكل واستمرت زياراتى له.. ومناقشاتى معه.. واتصالاتى به إلى أن دفعنا معا الثمن.

على صفحة داخلية من الجزء الأول من كتاب «المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل» كتب هيكل إهداء لى لخص فيه ما تعرضنا إليه من متاعب ومشاكل.

«إلى عادل حمودة.. زميلا.. وصديقا.. ورفيق مشاكل.. ما زالت تجر أذيالها».

صدر الكتاب فى مارس 1996 متأخرا عن طبعته الإنجليزية بعدة شهور.. على خلاف العادة التى حرص عليها هيكل.. أن تخرج الطبعة العربية فى القاهرة قبل الطبعات الأخرى باللغات المختلفة فى العواصم الأخرى.

وتقدمت مؤسسة الأهرام بطلب للحصول على حقوق النشر العربية ووافق هيكل.. ولكن.. الأهرام ماطلت في النشر بسبب ما قاله هيكل في الحوارات التي أجريتها معه.. بتعليمات من مبارك.. أو بحرص زائد من رئيس مجلس إدارة الأهرام في ذلك الوقت إبراهيم نافع الذي أبدى استعدادًا للتنازل عن العربون الذي قبضه هيكل.. ربع مليون جنيه.. تعويضا عن الوقت الذي ضاع.. والفرصة التي أهدرت.. لكن.. هيكل لم يقبل بالمبلغ.. ورد العربون في شيك مرفق بخطاب إلى إبراهيم نافع.. تحدث فيه عن تقديره للدواعي التي جعلته يرفض تنفيذ العقد بينهما.. وما جاء في الخطاب الذي أطلعني هيكل عليه، وإن رفض نشره، كرر هيكل ما عناه في مقدمة الكتاب قائلا:

«واجهت ما أشرت إليه من ظروف غير مألوفة أو على الأقل غير عادية وحاولت تقدير الدواعي وأظنني فعلت مستجيبا لمشاعر وولاءات تعلو فوق الحقوق والعقود وحافظا لصلات وصداقات تسبق في حسابي أي حساب».

ومن جديد عادت إلى هيكل هواجس منع نشر كتبه في القاهرة.. ليعود من جديد إلى بيروت التي كانت حانية عليه وعلى مؤلفاته.. لكن.. تلك الهواجس تبددت.. ودخل إبراهيم المعلم على الخط.. ناشرا.

■ ■ ■

كان عقاب هيكل بمنع نشر كتبه في مؤسسة قومية أو حكومية فاتحة خير عليه.. فقد أعاد المعلم نشر كتبه القديمة.. وكتبه الجديدة.. كما اشتركا معا في إصدار مجلة «وجهات نظر».. هيكل بما يكتب، ويشرف.. والمعلم بما يدير، وينشر.. وتطور البيزنس بينهما بدخول أحمد هيكل شريكا للمعلم في دار الشروق وشريكا له في الصحيفة اليومية التي حملت نفس الاسم وصدرت فيما بعد.

أما أنا فقد وصل عقابي إلى مداه بإخراجي من روز اليوسف في إبريل 1998 ونقلي كاتبا متفرغا في الأهرام.. تحت رقابة مشددة.. حرمتني من تناول موضوعات سياسية تناسب طبيعتي المهنية.

وعقب خروجي من روز اليوسف قال هيكل متحدثا إلى محمد عبد القدوس في صحيفة «الشعب»:

«إن عادل حمودة من ألمع الصحفيين المصريين الذين ظهروا فى الفترة الأخيرة بصرف النظر عن اختلاف البعض على أسلوبه وآرائه.. ومن مميزاته أنه أعطى هامشا من الحرية يزيد عن ما هو مألوف وهذه إيجابية لصالحه فمهمة الصحفى باستمرار أن يعمل على توسيع هامش الحرية المسموح له بها بحكم الظروف وواقع الحال الذى لا يمكن إنكاره».

لكن.. لم تمر سوى أسابيع قليلة حتى استنكر هيكل أن يكون الأهرام ملجأ لكل طريد فى الصحافة.. فقد سبق أن نقل عبد الرحمن الشرقاوى من روز اليوسف إليه.. وأنا لحقت به.. ولم أعاتب هيكل على ما قال.. فهو حر فى آرائه.. ولم تمنع هذه الآراء التى كانت ضدى أن أظل صديقا له.. فصداقة الكلمة لو كانت حقيقية تقبل الاختلاف.. بل تقوم على الاختلاف.

أكثر من ذلك.. سعيت للاقتراب منه أكثر.. مستمعا منه لسيرة حياته الشخصية والمهنية التى ترجمتها فى كتاب «هيكل: الحياة والحب والحرب».. حاولت فيه تفسير مشواره الطويل الذى انتقل خلاله من محرر حوادث إلى رئيس تحرير.. ومن كاتب متميز مصنف فى مرتبة دولية متقدمة إلى شخصية سياسية قادرة مؤثرة فى السلطة الحاكمة وهو ناصح لها أحيانا.. وناقد لها أحيانا أخرى.. خاصة عندما تعطيه ظهرها.

وفى كل المناقشات المغلقة التى جرت بيننا على مدى مئات الساعات فى شقته المطلة على نيل الجيزة أو فى عزبته الريفية فى برقاش أو فى بيته الصيفى فى قرية الرواد بالساحل الشمالى اختلفنا كثيرا.. لكن.. لم تتجاوز هذه الاختلافات حدود المناقشات.. فقد كنت أخشى من أن نشر بعض منها قد يمنح فرق الصيد المتربصة به أيام مبارك فرصة صيد فى مياه عكرة.. فتشمت.. وتسخر.. أو تتصور أننى انضممت إليها.. وأصبحت واحدا منها.

المرة الوحيدة التى نشرت فيها معلومات مخالفة لما ذكر كانت بمناسبة زيارة الرئيس الأمريكى باراك أوباما للقاهرة حيث ألقى خطابا تحت قبة جامعتها كان بمثابة رسالة سياسية وحضارية للعالمين العربى والإسلامى لم يعمل بها هو نفسه فيما بعد.

لم تكن معلومات هيكل التى منحها لصحيفة الشروق دقيقة.. معلوماتى كانت أدق.. لسبب بسيط إننى تناولت العشاء مع الشاب الذى كتب خطاب أوباما وعرفت منه أسرار الزيارة وما جرى فيها.. كما عرفت المزيد عنها من رئيس الديوان زكريا عزمى الذى تطوع وكشف الكثير مما جرى على مائدتى الإفطار والمباحثات.. ربما نكاية فى هيكل.

وبالرغم من أننى قدمت كلمة وأخرت كلمة حتى لا يفهم أحد مما كتبت أننى أشارك فى حملة على هيكل فإننى وجدت من يصطاد فى تلك المياه العكرة ويصف ما كتبت بأنه انقلاب على هيكل.

كان هيكل خارج الحدود فى رحلة أوروبية تعّود القيام بها كل سنة قبل أن يعود ليقضى شهرى يوليو وأغسطس فى الساحل الشمالى.. وعندما عاد التقينا.. وشرح وجهة نظره.. وأغلق الملف على ذلك.

■ ■ ■

لم أعبر عن اختلافى مع هيكل وهو محاصر فى نظام يكرهه.. ولا يجد منفذا للتعبير فى صحيفة.. أو نافذة تلفزيونية.. ولكن.. مؤخرا تغير الوضع تماما.. أصبح مؤثرا على صحيفة يومية بشراكة أحد أبنائه فيها.. وبنفس الكيفية أصبح مؤثرا على دار نشر كبرى تتحكم فى غالبية مثقفى مصر.. لو اختلف هيكل مع واحد منهم لن تنشر له ما يكتب.

وبتعدد الصحف المستقلة نجح هيكل فى مد جسور الود والمجاملة مع ملاكها ومحرريها فأصبحت فى خدمته.. تحتفل بما يقوله على شاشات التلفزيون.. وتتبارى فى نشر حوارات معه.. وتمنع ما يكتب ضده من النشر.. وهو أمر غريب.. أن يكون كاتبا فى ثقله وشهرته سببا فى تقليص حرية الصحافة.. وتقييدها.

لقد انقلبت الآية.. فى وقت سابق كان من الصعب أن يجد هيكل صحيفة تدافع عنه.. أما الآن.. فمن الصعب أن نجد صحيفة تختلف معه.

وبعد أن كان مكروها من السلطة التى جسدها مبارك أصبح مقربا من السلطة التى جسدها كل من جاء بعده.. محمد مرسى.. عبد الفتاح السيسى.. عدلى منصور.. كلهم مدوا الجسور معه.. واستقبلوه.. وسمعوه.

أصبح هيكل قويا.. مسنودا.. محميا.. يدور فى حلقة ذكره دراويش ومريدون يسبحون بمآثره.. ويتلمسون البركة بالقرب منه.. ويلقون بتهمة الكفر على كل من يعارضه.

وفى الوقت نفسه فإن أقواله وأفعاله توجب الاختلاف معه.. وتستحق المناقشة العلنية المثمرة.. خاصة فى هذه الفترة الحرجة التى تعيشها البلاد.. مؤامرات قادمة من الخارج.. صادقة وصادمة.. وتفجيرات فى الداخل ساخنة ومؤلمة.. ومتاعب مزمنة فى كافة مظاهر المعيشة لن ينقذنا منها من ينتمى إلى ماضى.. ولم تفلح نصائحه مع من ذهب فلماذا تفلح مع من جاء؟

وكان السؤال الأهم: هل على هيكل أن يتكلم وعلينا أن نقول «آمين»؟. ألم ينته عصر الرأى الواحد الذى لا شريك له؟. هل أصبحت جملة فولتير الشهيرة «قد أختلف معك فى الرأى لكنى على استعداد أن أموت دفاعا عن رأيك» مجرد كلمات فارغة لا تستحق سوى أن تطبع على ورق تواليت؟. هل تغيرت الجملة المقدسة إلى «قد أختلف معك فى الرأى لكنى لن أتردد فى قتلك لو اختلفت معى»؟!

■ ■ ■

لكن.. ما أن نشرت ما نشرت عنه من علامات استفهام سياسية ووطنية حتى وجدت من يسأل: «ما المقصود؟».

وكانت إجابتى على السؤال.. أن ما نشرت يفصح عن هدفه.. ويشرح نفسه بنفسه.. «ومن فضلكم ارجعوا إلى ما كتبت واقرأوا بعيون مجردة.. لا تحمل عاطفة عمياء.. أو تغطيها سحابة من التفسيرات الشخصية التى تضلل صاحبها قبل غيره».. وهو ما يمكن الوصول إليه بسهولة عند قراءة المقالات التى ستجدها فى فصول قادمة من الكتاب.

يضاف إلى ذلك.. أن البحث عن الحقيقة ليس له توقيت محدد.. كما أن مناقشة كاتب كبير شغل الدنيا مثل هيكل أمر محمود طالما التزمنا بأصول الحوار.. ولم نخرج عن حدود الأدب.. وإلا كنا نصنع آلهة من لحم ودم.. وهو شرك بالحرية قبل أن يكون شركا بالله.

على أننى أعترف أن جملة من مثقفى مصر كشفوا رغم ارتفاع سيطهم وعلو شأنهم عن آراء غير منزهة عن الهوى فيما يقرأون.. فإما إعجاب بلا حدود.. أو رفض بلا نقاش.. إما أن تجد من يقول «كفاية على هيكل ما فعل بنا» أو تجد من يقول «حرام عليك ما فعلت به».

وهناك من تدخل بالنصيحة قائلا: «ألم يكن من الأجدى حفاظا على صلتك بالرجل أن تنتقده بينك وبينه؟».

وكان ردى: «وما جدوى النقاش إذا أخطأ الرجل جهرا وعاتبناه سرا.. كما أن الهدف ليس نقده.. وإنما لفت نظر من يقرأ أو يسمع ما يقول إلى وجهة نظر أخرى.. وهو ما يتنافى مع نقاش الغرف المغلقة».

وشبهت طلبهم بديمقراطية النظم المركزية ذات التنظيم السياسى الواحد حيث يسمح أحيانا بنقد ذاتى داخل قاعات مغلقة.. وقد سقطت هذه النظم متتالية بفعل تأثير قانون «الدومينو».. كما أن الحرية تحتاج إلى هواء طلق لتؤتى ثمارها.. الحرية ليست من فصيلة نباتات الظل.

وسمعت من يقول منتشيا وكأنه وضع يده على حقيقة غائبة: إننى أريد أن أروج بما نشرت عن هيكل لصحيفة «الفجر» بحثا عن مزيد من القراء.

وكان ردى: ارجعوا إلى شركات توزيع الصحف لتعرفوا معلومة صادمة.. إن هيكل لم يعد عنصر جذب للقراء.. سواء بنشر ما يقول.. أو بنقد ما يقول.. فالبضاعة التى تزيد عن الحد فى الأسواق ينخفض الطلب عليها.. ويسرى ذلك للأسف على هيكل.. فما يقوله على شاشات التلفزيون يصبح موضوعا رئيسيا فى صحف اليوم التالى.. ومع ثورة «اليوتيوب» يستدعيه الناس بالصوت والصورة دون الحاجة إلى قراءة النص فى الصحف.

وما يلفت النظر فى هذه الظاهرة أن هيكل كان مستوعبا لها.. فأكثر من مرة قال لى:

«إننا مثل نجوم السينما.. سنظل فى مواقع الاهتمام طالما أن لنا جمهورًا يطلبنا».

فهل انصرف الجمهور عن هيكل؟ وهل رصد بنفسه تراجع الطلب عليه؟

وسمعت من يقول: إن هيكل رجل تجاوز التسعين ومن باب احترام الكبير لا يصح ولا يجوز نقده.

وكان ردى: إننى تعرضت لأفكاره ومواقفه ولم أتعرض لحياته وسلوكياته.. يضاف إلى ذلك أن الشيخوخة لو طالت العقل فإن من يعانى منها عليه البقاء فى بيته.. بجانب مدفأة.. مرتديا «روب دى شامبر».. وبجانبه كوب من الشيح البابونى الدافئ.

وسمعت من يقول مستنكرا: «ومال أولاده بالطعن فيه؟».

وكانت إجابتى: إن تعرضى لولديه أحمد وحسن كان محصورا فى علاقات البيزنس التى ربطت بينهما وبين جمال مبارك.. وهو أمر لافت للنظر.. أن يختلف الآباء سياسيا إلى حد القطيعة ويتوافق الأبناء ماليا إلى حد المشاركة.

كما أن هيكل قال لى ذات مرة: «إنه حذر أولاده من الدخول فى بيزنس تكون الحكومة طرفا فيه».. وما وقع تحت يدى من قضايا ينفى ذلك.. بل يؤكد مشاركتهم للحكومة فى مشروعات حيوية.

وكان السؤال الأخير هو الأهم: لماذا الآن؟

وكانت إجابتى: إن حماس هيكل للرئيس مرسى انتهى بحماس مضاد للمشير السيسى.. فى حالة مثيرة للدهشة.. تحتاج لتفسير منه.. كيف انتقل بهذه السهولة من النقيض إلى النقيض؟. وطلبت منه توضيحا.. وأتصور أن هذا إن لم يكن حقى فهو حق غيرى.

يضاف إلى ذلك خوف يصل إلى حد الفزع من أن يفسد هيكل برغبته المزمنة فى الارتباط بأى سلطة المعجزة التى وقعت فى 30 يونيو.. ولولاها لكانت رقابنا معلقة فى المشانق.. ولو كانت المؤامرات لا تزال تحيط بنا فإننا فى حاجة لمن يساعد على تجاوزها مترفعا عن ما فى النفس من أهواء.. بجانب أن هيكل هو هيكل.. لا يهمه سوى نفسه.

وقد كان علىّ أن أحذر بكشف ما أعرفه عنه شخصيات نعلق عليها آمالنا حتى لا تضلل بسحر كلامه ولا تتورط بتيه تحليلاته.. وهذا حقها علينا حتى لا يأتى يوم لا يكون لنا هدف سوى ذلك.. تاركين القرار لها.. أن تتحمل مسئوليتها لو سلمت نفسها للرجل.. أو تعاملت معه دون وعى بما فعل مع من سبقوها من حكام.

إن من كان سببا فى المشكلة لا يمكن أن يكون طرفا فى الحل.

كما أن هيكل بنفسه منحنى تفسيرا إضافيا لما كتبت عنه باقتباس منسوب إلى مؤسس صحيفة نيويورك تايمز آرثر سالزبورجر نشره فى بداية كتابه «بين الصحافة والسياسة»:

إن رأى أى إنسان فى أى قضية لا يمكن أن يكون أفضل من نوع المعلومات التى تقدم إليه فى شأنها.

«اعط أى إنسان معلومات صحيحة ثم اتركه وشأنه.. سيظل معرضا للخطأ فى رأيه.. ربما لبعض الوقت.. ولكن.. فرصة الصواب سوف تظل فى يده إلى الأبد.

احجب المعلومات الصحيحة عن أى إنسان أو قدمها إليه مشوهة أو ناقصة أو محشوة بالدعاية والزيف إذن فقد دمرت كل جهاز تفكيره ونزلت به إلى ما دون مستوى الإنسان».

وقد سعيت بنفسى إلى معرفة المعلومات الصحيحة عنه.. أو صححت ما التبس منها عندى.. لتكون فرصة الصواب فى يدى ويد غيرى إلى الأبد.. حتى لو كان رأيى تعرض لبعض الوقت إلى أخطاء.. فالبشر بشر.

وفى نفس الكتاب يقتبس هيكل قاعدة من القانون الرومانى ترجمتها:

«بنفسه قالها».

أو بنفسه اعترف.. وقد طبقت تلك القاعدة على هيكل نفسه.. فكل ما استندت إليه فى نقده اعترف به هو بنفسه من قبل.

وفى نفس الكتاب اقتباس ثالث مأخوذ من قصيدة للشاعر والمسرحى الإنجليزى وليم شكسبير:

«ضمير له ألف لسان.. وكل لسان عليه ألف حكاية»!

وسوف نعرف فى نهاية الكتاب من يستحق ذلك الاقتباس.

وفى نفس الكتاب يستعرض هيكل قصته مع الصحافة ويرد على الاتهامات التى لاحقته بعد رحيل عبد الناصر.. مثل إنه «كان الصحفى الأوحد».. والأهم إنه تسبب فى دخول مصطفى أمين السجن وتشريد توأمه على أمين فى خارج البلاد بين بيروت ولندن فيما يشبه النفى.. وحرص هيكل على أن ينشر الكتاب فى وقت «تكون فيه كل الأطراف على قيد الحياة وقبل أن ينزل صمت الأبدية» حتى «لا يقول قائل: لماذا لم يتكلم وكان فى مقدوره الكلام؟. أو يقول آخر: بعد فوات الأوان جاءوا يتكلمون؟».

وقد عملت بتلك النصيحة وقررت نشر الكتاب فى وجود هيكل.. متعه الله بطول العمر والصحة.. لكن.. القلوب على حد قوله ساعات دقاقة وحساباتها بالثوانى وأجلها فى يد ليس لبشر عليها سلطان.

حزم هيكل أمره قائلا: «ليكن ما يكون».. فقد كان يعرف مسبقا أنه أمام مهمة «دونها أهوال».. فلدى «الآخرين سلطة» وليس فى يده شئ.. ولدى الآخرين «منابر ضخمة كأنها الحصون».. وهو «فى الهواء الطلق أو فى العراء».. و«بالتالى فهى موازين غير متكافئة».

وأتصور أننى بكتابى عنه فى نفس الوضع الذى كان فيه وهو ينشر كتابه عن مصطفى أمين.. فليس لدىّ سلطة ولديه اتصالات قوية بالسلطة.. وليس فى يدى شىء.. ولديه منابر ضخمة «كأنها الحصون».. دار الشروق بصحيفتها.. وسيطرتها على غالبية مبدعى مصر وصحفييها ممن يرجون نشر كتاب سياسى أو روائى.. بجانب شاشات الفضائيات التى تتلمس منه كلمة أو لقطة.. ولكن.. وحسب ما قال هو بنفسه فإننى «اطلعت على نداء داخلى يهيب بى أنه الآن الكلام وإلا فلا كلام».

وقبل أن نترك هذه المقدمة التى طالت.. أسجل أن عنوان الكتاب «خريف هيكل» ليس من اختيارى.. وإنما من اختيار مجلس تحرير صحيفة «الفجر».. فقد وضعه على الصفحة الأولى فى إشارة بارزة إلى المقال الثانى الذى نشرته عن هيكل على صفحاتها.

وقد اقتبس العنوان من كتاب هيكل «خريف الغضب» الذى وجه فيه هيكل سهامه الحادة المدببة والشرسة إلى السادات بعد رحيله.. عاجزا عن الرد.. لكن.. «خريف هيكل» يواجه هيكل وهو على قيد الحياة.. قادرا على الرد بنفسه.. أو بواسطة مقربين منه يمنحهم من باب الكبرياء تفويضا ولو شفهيا منه.

وربما تعرضت إلى بعض المتاعب بسبب الكتاب.. لكن.. منذ متى منعت نفسى من الكتابة خوفا من المتاعب؟

كما أن من العار أن يخشى كبار الناشرين الاقتراب من هذا الكتاب خوفا من نفوذ هيكل واللوبى المحيط به.. لكن.. الناشر الذى لا يؤمن بقدسية مهنته عليه أن يتركها ليفتح «مقلة».. تبيع الفول السودانى للنسانيس قبل البشر.

القاهرة
يونيو 2014

2

الجرأة على مراجعة المألوف والمعروف والنفس!

«منذ أن برق نجم محمد حسنين هيكل ونحن نشعر أنه مسافر دائم فى أيامنا.. وضمائرنا.. ولغتنا.. وهزائمنا قبل انتصاراتنا.. وأحزاننا القومية قبل أفراحنا الشخصية».

هكذا.. بدأت مقالى الأول عن هيكل.. وأجد من المناسب أن أعيد نشره.. ليُقرأ فى هدوء تتيحه القراءة المتمهلة للكتاب.. ربما يعيد الغاضبون منى تقييمه بعيدا عن التعجل الذى تفرضه قراءة الصحف.

وقد وجدت من المناسب حذف جمل سبق ذكرها فى المقدمة.. أو توسيع أجزاء تحتاج لمزيد من الشرح والتدليل.. وهذا ما يمنحه الكتاب أيضا.. وتحرمنا منه الصحف.

أضفت فى المقال بحثا لهيكل عن مخرج مما يفعل: «والمؤكد أنه مثل غيره من الكتاب كثيرا ما وقع فى تناقضات.. وحاسب نفسه من باب المراجعات.. فهو من لحم ودم.. وليس «قالب عجين».. ليس «موتورا خاليا من المشاعر».

«عندما اقتربت منه وجدت نفسى مشدودا إليه.. معجبا به.. مدافعا عنه.. فقد نجح فى البقاء على القمة أكثر من ستين سنة.. واستهلك خلال عمره المهنى الطويل ملكا (فاروق الأول) وسبعة رؤساء (محمد نجيب وجمال عبد الناصر وأنور السادات وحسنى مبارك وحسين طنطاوى ومحمد مرسى وعدلى منصور)، بخلاف الرئيس عبدالفتاح السيسى.

«ذهبوا جميعا.. وبقى هو.. بل أكثر من ذلك تطور من محرر حوادث يفتش عن أسباب الضعف الإنسانى الذى ينتهى بجريمة إلى مفكر سياسى يفسر مظاهر ضعف النظم التى تنتهى بجرائم أكبر.. وأخطر: الحروب.. والتعذيب.. والنهب».

«وفى كل الأحوال يتابع الناس أحاديثه التلفزيونية بعد أن كف عن كتابة مقالاته الصحفية.. وأعلن انصرافه عنها».

وتعرضت فى المقال بعد ذلك إلى ما سبق أن ذكرت فى المقدمة عن أهمية السؤال حسب ما كتب هيكل فى تقديم كتابى «لعبة السلطة فى مصر».

وأضفت: «أكثر من عشرين سنة وأنا أرى فى كثير مما يقول هيكل حيوية متفجرة.. لا ترهل فى التفكير.. ولا تراجع فى المواجهة.. فكلماته تولد من جديد كلما قرأناها.. وتتوهج مثل خاتم سليمان كلما فركناها».. وأظن أننى بهذه العبارات منحته ما يستحق من تقدير واحترام.

استطردت: ولكن.. «ليس كل ما يبرق ذهبا».. هكذا سمعت كثيرا من مختلفين معه.. ومعترضين عليه.. بعضهم ينتمى إلى زمن عبد الناصر.. والبعض الآخر يترنح بين إيمانه بالسادات وانتمائه إلى مبارك.. كنت أرى الهجوم عليه نوعًا من تصفية الحسابات السياسية القديمة.. لا شأن لنا بها.. ولم أكن أتردد فى الدفاع عنه دون أن أنقل إليه ما أقول (خشية من شبهة نفاق أو رفضا لتعليق دين فى رقبته).

وكان ردهم (خصومه): «أنت شاهد ما شافش حاجة».. وكانوا يستطردون «أنت لم تكن طرفا فيما جرى وما كان».. وغالبا ما كانوا ينهون تعليقاتهم الحادة (الجادة) بجملة ثقيلة.. تشعرنى بالسذاجة قبل الحيرة:

«الأيام بيننا والزمن القادم كفيل بإثبات وجهة نظرنا فيما نرى وما نقول».. «حاول أن تختلف معه اختلافا موضوعيا وسوف ترى كيف يمسح كل ما بينكم من صداقة بأستيكة حادة».

والحقيقة.. لم تكن تقديراتهم صائبة.. فقد اختلفت مع هيكل دون أن يغضب أو ينقلب.. وكان ذلك كما سبق أن ذكرت فى المعلومات التى نشرت على لسانه عن زيارة اوباما إلى القاهرة.. وكان ذلك الخلاف فرصة استغلها صحفيو مبارك للوقيعة بينى وبين هيكل.. لكننا.. تجاوزناها بسرعة فى أول لقاء جمعنا فيما بعد.

■ ■ ■

وجرت محاولة أخرى للوقيعة بيننا عندما راح زملائى فى تجربة «روز اليوسف» يحتفلون بدخولى عامى الستين فى «نادى العاصمة».

كنت قد توليت مسئولية تحرير المجلة السياسية العريقة فى فبراير 1992 وهى تكاد تحتضر.. انهار توزيعها إلى نحو ستة آلاف نسخة.. وعجزت إدارتها عن الوصول إلى روشتة علاج تنقذها من سرطان الغلق.. لكن.. بنفس المحررين الشبان.. وبنفس التكلفة المالية نجحت المجلة حتى أصبحت الأكثر توزيعا وتأثيرا.. وكان كل ما فعلت.. فتح الأبواب أمام الموهوبين ليعبروا عن أنفسهم بحرية.. وجرأة.. ودون خوف من محرمات.. أو استجابة لتحذيرات.. ولم تتغير روز اليوسف وحدها بما فعلت.. تغيرت الصحافة المصرية معها.

قصرت دعوة الحفل على شركاء فى التجربة (إبراهيم عيسى وعمرو خفاجى ووائل الأبراشى وإبراهيم منصور) وأصدقاء مقربين (مصطفى الفقى وأحمد العزبى وممدوح حمزة وهانى عنان ومحمد الوحش وراوية راشد وعبد الله السناوى وأسامة خليل) بجانب أجيال صحفية شابة عملت معى فيما بعد (منال لاشين ويسرا زهران) وانضم إلينا صلاح دياب (ناشر المصرى اليوم) ومجدى الجلاد (رئيس تحرير الصحيفة وقتها) والسيد البدوى شحاتة (رئيس حزب الوفد) ولميس الحديدى (الصحفية والتلفزيونية المعروفة) ووجدت أن الحفل لن يكتمل إلا بدعوة شيخنا وكبيرنا.. هيكل.

وقف إبراهيم عيسى ليلقى كلمة.. وتفضل بوصفى بـ «كبيرنا الذى علمنا السحر».

وأضاف: إننى «لم أكن مجرد صحفى أو رئيس تحرير أو كاتب كبير بقدر ما كنت معلما ماهرا».

واستطرد: «كطلبة فى رواق أزهر نجلس حول عمود شيخنا نتابع ونتبعه ونرقبه ونترقبه نشاكسه ونشاغبه نتقلده ونقلده يفكر فى تخليق فكرة أو لقطة فى زاوية موضوع يحفزنا ويستفزنا».

وتحدث وائل الابراشى وعمرو خفاجى وراوية راشد وهانى عنان ومصطفى الفقى وغيرهم وراحت كلماتهم تضغط من شدة رقتها على ما تحت جفونى من أعصاب.. فتفجرت ينابيع الدمع خجلا وامتنانا.

وطلب مصطفى الفقى من هيكل أن يتكلم.. أن يقول جملة.. أو كلمة.. أو ابتسامة.. لكنه.. أبى.. متعللا بأنه أرهق فى المشوار الطويل الذى قطعه من برقاش إلى وسط القاهرة.

لكن.. تفسيره لم يلق صدقا فى نفوس الحاضرين والمراقبين والمحررين المتابعين للحدث.. وأجمعوا بلا استثناء على أن هيكل وجد نفسه ربما لأول مرة فى تجمع صحفى وسياسى وثقافى دون أن يكون محوره ومحل اهتمامه وصائد الضوء فيه.

وربما شعر أن لقب «الأستاذ» الذى يحمله استحقه فى الحقيقة صحفى آخر.. حسب ما ذكرت صحف صدرت فى اليوم التالى.. ومنها «اليوم السابع».

لكننى لم أقبل بما سمعت أو قرأت.. واعتبرت ذلك نوعا من الوقيعة بيننا.

وكان ردى: «إن هيكل يمتلك من رصيد الضوء ما يجعله مترفعا عن مثل هذه المشاعر السلبية».. وكتبت ذلك فى المقال.

والحقيقة أن هيكل نوع من الصحفيين يعمل من أجل نفسه وحده.. يصرف كل وقت فى تنمية اسمه وحده.. وهو نوع شائع فى المهنة.. لا ينقص من قدر المؤمنين به.. بخلاف نوع آخر تعود بحكم طبيعته على تدريب وتعليم كل من يدخل فى دائرته.. مثل مصطفى وعلى أمين (فى أخبار اليوم) وإحسان عبد القدوس وأحمد بهاء الدين وحسن فؤاد وصلاح حافظ (فى روز اليوسف) وكنت امتدادا لهم.. وربما لهذا السبب لم تخرج المدارس الصحفية المصرية عن مؤسستين هما أخبار اليوم وروز اليوسف.. أما الأهرام فقد فضلت أن تأخذ الكاتب والصحفى بعد أن يصبح نجما.. وبعد أن يتخرج فى إحدى المدرستين.

إن المدارس الصحفية مثل المستشفيات الجامعية.. تعلم الأطباء وتدربهم وتصقلهم حتى يبرعوا فى تخصصاتهم فى انتظار المستشفيات أو العيادات الخاصة للتعاقد معهم.

ولقب «الأستاذ» الذى يحظى به هيكل لقب «شرفى».. حصل عليه بحكم ما حقق من إنجاز.. وبما منحه الله من طول فى العمر.. كما أنه والحق يقال لم يكن ليبخل على أحد إذا ما طرق أبوابه طالبا نصيحة مهنية.. لكنه.. لا يفعل ذلك إلا إذا كان لديه من الوقت ما يفيض عن مشاغله.

لم أصدق أن هيكل أصيب بحالة توتر عصبى مكتوم لمجرد أنه وجد المديح المنتظر يذهب إلى غيره.. وفى وجوده.. إن ثروته من الشهرة تتجاوز حجم شهرة من كانوا يجلسون حوله ويزيد.. فقد كان حتى وقت قريب مصنفًا واحدا من أهم ثلاثين كاتبا فى العالم.. ويحسب أجره فى الكتابة بالكلمة.. «جنيه إسترلينى على كل كلمة».. على حد قوله.. أو هكذا كان.

وقد منحته الشهرة ثقة فى النفس جعلت من الممكن الاختلاف معه بعد أن أزيح مبارك واسترد هيكل ملعبه وجمهوره ونفوذه.. يمكن الآن الاختلاف معه دون أن يعتبر ذلك موقفا سيئا تجاهه.. فهو فى تقديرنا أكبر من أن يغلب المشاعر على الحقائق.

كما أن كل كلمة يكتبها أو ينطقها أو يصرح بها تنشر فى كتاب.. يتحمس لطبعه إبراهيم المعلم.. أهم ناشر فى مصر.. وربما فى العالم العربى.

■ ■ ■

بعد ثورة يناير.. توقفت طويلا عند إبراهيم المعلم شريك أحمد وحسن هيكل وفى الوقت نفسه كان أحد رجال سوزان مبارك فى علاقة لم أستوعب تشابكها وتناقضها.. هيكل يعارض مبارك.. وأبناؤه شركاء الناشر المفضل لسوزان مبارك.. لكننى سرعان ما نفضت ذهنى من متاعب حل ذلك اللغز المعقد.. فكل شخص فى تلك العلاقة له إرادة مستقلة.. مهما كانت صلاته العائلية.. أو وصلاته السياسية.. كما أن للبيزنس أحكامه التى تتجاوز كل اعتبارات.. وتنفى كل الحسابات.. ولا تلتفت لكل التفسيرات.. «بيزنس إذ بيزنس».. حسب القول الشائع الذى يتضمن فى طياته نفيا لكل مبدأ.. طالبا فقط الربح دون سواه حتى لو كان تجارة فى الكتب والكتاب.

لكن.. من جانب آخر يعتبر المعلم شخصية محورية فى حياة هيكل.. فهو ناشر كتبه.. والواجهة التى يعمل من خلفها.. فقد أسس المعلم شركة وقعت نيابة عن هيكل عقدا مع الجزيرة ليتحدث على شاشتها أسبوعيا تحت عنوان «تجربة حياة».. بجانب أحاديث مباشرة يجريها فى أوقات مختلفة تفرضها سخونة الأحداث.. فحلقات الذكريات يمكن أن تصيب مشاهدها بالملل.. وفى الوقت نفسه تحقق للجزيرة هدفها «الخبيث» من ظهور هيكل على شاشتها: نقد نظام حكم مبارك.. والتسلل من خلال ثغراته للطعن فيه.

وقع المعلم مع الجزيرة.. ووقع هيكل مع المعلم.. تسلم هيكل ما يخصه من المال القطرى ليحمى نفسه من تهمة القبض المباشر.. بدا بيد من العائلة الحاكمة هناك.. تاركا عمولة مناسبة للوسيط.. منتهى الذكاء من هيكل.. ومنتهى الذكاء أيضا أنه توقف عن بث أحاديثه فى الجزيرة فور أن فقاطعت المصالح.. وتفجرت المتاعب.. وتفرقت السبل بين القاهرة والدوحة.

توقفت أحاديث هيكل فى الجزيرة قبل استكمالها.. فقد وصل فيها إلى حدود «حرب أكتوبر».. وما بعدها.. وفى أعماقه رغبة فى استكمالها بعيدا عن الجزيرة التى لم يعد مقبلا عليها بعد ثورة يونيو.. حين راحت تحرض على مصر وتحبذ إسقاط نظامها الجديد بالعنف.

وقد سعى هيكل لاستكمال عرض ما تبقى من مشوار حياته على شاشة فضائية مصرية.. لكنه.. لم يجد سوى عروض بالحديث فى الشأن الجارى.. بحثا عن إجابة على السؤال الصعب: «مصر أين ومصر إلى أين؟».

لقد قربت العائلة القطرية الحاكمة هيكل منها بعقد الجزيرة الذى يحسب بملايين الجنيهات.. كما فتحت الباب أمامه ليدخل عالم التلفزيون الساحر والمؤثر لجما متحدثا يشد الانتباه.. مسجلا مشواره بالصوت والصورة بوسيلة تضمن البقاء والخلود.

وحسب أصول اللياقة الغربية التى يجيدها هيكل كان لا بد أن يرد الجميل ولو على طريقة شعراء البلاط.. فعندما استضافه فرع «جامعة جورج تاون» فى الدوحة ليلقى محاضرة عن «ثورات الربيع العربى» أعرب فى البداية عن شدة امتنانه لوجود «صاحب السمو أمير قطر (حمد بن خليفة) وصاحبة السمو أميرة قطر (الشيخة موزة بن مسند)» فى الصف الأول.. واعتبر حضورهما «رغم مشاغلهما» أمرا يستحق الشكر.. بجانب وصفه للشيخة موزة بأنها «قائمة على رسالة علم وتنوير».

ولاحظت من الفيديو الذى يصور كلمة هيكل أنه يرتعش فى حضرة الشيخ وزوجته.. لقد قرأنا فى كتاباته عن ملوك وأمراء وحكام العالم الذين يخطبون وده ويشعلون سيجاره ويجرون خلفه.. لكنها المرة الأولى التى نراه فى حضرتهم.. ولم تكن صورته ملائمة.. ولم يكن صوته شامخا.

وفى نفس المحفل العلمى أضاف هيكل: إن «الأمير مشغول بقضايا أمته».. واستطرد: «ومحب لدرجة العشق لمصر».

وتوقفت عند انشغال «الأمير بأمته».. ووجدت فى العبارة تجاوزا من هيكل فى غير موضعه.. فتقديره للرجل فى غير محله.. وإلا شعرنا بالشك فى قدرة هيكل على أن يحكم على الحكام.. أو وجدنا أنفسنا نفكر فى أمور لا تجوز.. نربأ بهيكل عنها.

إننى صدمت عندما قابلت حمد بن خليفة.. بالضبط صدمت.

كنت فى الكويت فى نهاية عام 1996 لمتابعة قمة «مجلس التعاون الخليجي» عندما قابلته فى مقر إقامته فى قصر «بيان».. تصورت أننى سأحظى بحوار صحفى يناسب مساحة الصخب الذى تثيره بلاده بعد أن انقلب على والده.. واستولى على الحكم.. وتمرد على الكبار من حوله.. ليثبت أنه لا يقل أهمية عنهم حتى لو كانت دولته على الخريطة فى حجم رأس الدبوس.. ولكننى وجدت شخصا ساذجا.. ليس فيه من هيبة الملوك والأمراء والشيوخ سوى الحراسة والحاشية التى تنفخ فى صورته وتضاعف من شعوره الضعيف بذاته.

لم أسمع إجابة واحدة مباشرة منه على سؤال طرحته عليه.. كلها عامة.. عائمة.. بل أكثر من ذلك لم يقلها بنفسه.. وإنما قالها نيابة عنه من كانوا حوله.. وكأنهم يخشون بحكم معرفتهم به أن يورطهم فى أزمة.. لو نطق بكلمة.

ولاحظت أنه يدخن نوعا من السجائر القوية (مارلبورو العلبة الحمراء) فسألته:

كيف تجمع بين الرياضة والتدخين؟

وهنا اضطر للإجابة بنفسه.. فالسؤال شخصى.. لن تقبل إجابة غيره عليه.. قال وجسده الضخم يرتج من الشحم الكثيف:

«أرجو أن لا تنشر أننى أدخن حتى لا تكرشنى زوجتى».

عندما نشرت الحوار استعملت من باب اللياقة المهنية جملة «حتى لا تطردنى زوجتى» بدلا من جملة «حتى لا تكرشنى زوجتى».. وتصورت أن الجملة فى النهاية دعابة إنسانية كالتى يلجأ إليها «أهل السلطة» ليثبتوا أنهم مثل باقى البشر.. بسطاء..

يحسبون حساب زوجاتهم.. ولو من باب خفة الظل.. لكننى دون أن أقصد وضعت قلمى على لغم مشحون ببارود سرعان ما انفجر.

لنترك جانبا حملة الشتائم الصحفية التى تعرضت إليها متهما بأننى لا أعرف كيف أخاطب أصحاب القامات والهامات ولا كيف أكتب عنهم إلى ما هو أهم.. إن زوجة حمد.. الشيخة «موزة».. شخصية مسيطرة.. مؤثرة.. قادرة بالفعل على أن «تكرشه».. أو «تطرده» من الحكم.. فقد نجحت فى إقناعه بالتنازل عن العرش إلى ابنها تميم بعد أن أجبرت حمد على تطليق زوجة مغربية مغرية.. وضعها فى فراشه دون استئذانها.

فلا الرجل «مشغول بأمته» كما قال هيكل.. ولا هو يملك مقومات الإنشغال بما يتجاوز فراش غرفة نومه.

أما حكاية «الحب إلى درجة العشق لمصر» فإن هيكل أول من يعرف أنها وهم كبير روج له من باب المجاملة.

ذات يوم سمعت من هيكل أن حمد همس له، وهما فى قصر الحكم فى الدوحة، بما يمكن وصفه «بالسر المخابراتى الكبير».. أنه قام بتمويل ثورة يناير فى مصر «دعما للديمقراطية».

ولم يسأله هيكل بالقطع عن مفهومه للديمقراطية.. خاصة أنه استولى على السلطة بانقلاب دبره ضد أبيه فور سفره لقضاء شهور الصيف فى أوروبا.. واستغل وجود شيوخ القبائل فى قصره للسلام عليه بعد وداع الأمير الأب والتقطت كاميرات التلفزيون صورهم وهم يصافحونه ليعرض الشريط صورة بلا صوت فى خلفية خبر يشير إلى أنهم يباركون انقلابه.. ويبايعونه أميرا.. على خلاف الحقيقة.. وسحبت الجنسية من قبيلة بأكملها كذبت المشهد.

وبنجاح تلك الخدعة اقتنع الأمير الجديد بأهمية التلفزيون.. فلم يتردد فى أن يخرج للنور قناة الجزيرة.. وأنفق عليها بسخاء.. واعتبر مديرها فى أهمية مدير المخابرات.. بل أكثر أهمية.. فمدير المخابرات لا يستطيع أن يحدثه فى أى وقت.. مدير الجزيرة يستطيع.

لكن.. هيكل نفى للأمير أن تكون أمواله وراء ثورة يناير قائلا: «إن المال الذى أرسله إلى الثوار ذهب فى الغالب إلى سماسرة ووسطاء، لا شأن لهم بتحريك التظاهرات..

أو تمديد الاعتصامات.. أو إشعال الاحتجاجات.. نافيا التهمة عن الشباب الذى قام بالثورة.. مؤكدا أن غالبيته برىء من «تهمة التمويل الخارجى».

على أن تلك القصة تؤكد بشهادة هيكل أن قطر تلقى أموالا فى مصر.. إما لمساندة الإخوان تحت زعم مساندة الديمقراطية أو لتخريب البلاد باسم إعادة الشرعية.. فى حالة غير مسبوقة لم يشأ هيكل تفسيرها رغم أنها ضاغطة وملحة وتحتاج رأيه ومشورته.

وما لا يعرفه هيكل أن شخصية خليجية حاكمة أبلغت مبارك يوم 4 فبراير عام 2011 قبل تنحيه بأيام قليلة أن حقائب قطرية متخمة بالدولارات ستدخل مصر متسللة عبر مطاراتها المختلفة.

وراح وزير الداخلية فى ذلك الوقت اللواء محمود وجدى يراقب ويتابع ويتربص.. لكنه لم يستطع منع الأموال التى قدرت بنحو مليار دولار وذهب نصفها على الأقل للإخوان من التسلل عبر مطار برج العرب.. حسب تقديره واعترافه.. كما سمعت منه مباشرة.

وفسر هيكل تدهور العلاقات بين القاهرة والدوحة بغيرة النساء التى دبت بين سوزان وموزة.. ولم يعترف هيكل بأننى أول من نشرت تلك الحقيقة على لسان عمر سليمان.. لكن الكبرياء المهنى يمنعه من التواضع والتنازل إقرارا لحقيقة أن هناك من سبقه فى نشر خبر جرت وقائعه فى كواليس الحكم التى كان بعيدا عنها.

كان الملك السعودى عبد الله بن عبد العزيز قد توسط بين مبارك وحمد.. واتفق على أن يلتقى الثلاثة فى الرياض لتصفية ما فى النفوس من شوائب.. واتفق على أن ينضم إليهم بشار الأسد فيما بعد.

لكن.. فجأة.. ودون مقدمات.. طلب مبارك من عمر سليمان السفر إلى الرياض والاعتذار للملك عبد الله عن لقاء حمد.. وشعر العاهل السعودى بالحرج.. وطلب أن يأتى مبارك مكتفيا بمصافحة حمد دون نقاش أو عتاب حفاظا على ماء الوجه.. لكن مبارك رفض.. فقرر وزير الخارجية السعودى سعود الفيصل أن لا يضيع وقتا.. واستأذن الملك فى السفر إلى الدوحة لشرح ما حدث لحمد.. وإبلاغه بما جرى.

وعندما سألت عمر سليمان عن السبب قال: «فتش عن المرأة».

فقد كانت كل الجسور النسائية بين سوزان وموزة محترقة.. وفى الوقت نفسه تطايرت شرارة الغيرة التى اشتعلت بينهما وأشعلت النار فى باقى الجسور السياسية بين البلدين.. فأحرقتها.

«ولو كان هيكل قد توقف عن أحاديث الجزيرة فإنه على ما يبدو لم يقطع صلته بأصحابها.. فقد ذكر فى حوار تلفزيونى أجرته معه لميس الحديدى يوم 19 ديسمبر 2013:

إنه لا يخفى أن لديه «صلة صداقة مع أمير قطر والشيخة موزة».

وأضاف: «وأعتقد أننى لن أتغير معهم».

واستطرد: «أنا ناقد لسياسة قطر وقد تكلمت فيها ولم أخف رأيى مطلقا».

«مست العبارة أحزان وأوجاع الكثير ممن سمعوها.. بل وتعجبوا منها.. كيف يظل هيكل بكل تاريخه صديقا لدولة تتآمر على بلاده.. وتهددها.. وتهاجمها.. وتحرض عليها ليل نهار.. وتمول الإرهاب الذى يهدد شعبها وأمنها.. كما أنها تؤوى رموز التطرف على أرضها؟. هل يكفى أن يبرر ذلك التواصل مع بيتها الحاكم بأنه «ينتقدها»؟. هل يقبل من كاتب يضعه المصريون فى خانة الوطنية مثل هذا التصريح المستفز؟».

لقد أفسدت قطر الحياة السياسية فى مصر.. بل وساعدت دون أن تقصد فى إزاحة الإخوان من الحكم.

فى فبراير 2013 طرح الاتحاد الأوروبى مبادرة لفض الاشتباك بين الإخوان وجبهة الإنقاذ المعارضة بأن تشكل حكومة جديدة برأسها محمد البرادعى وتضم عددا من الوزراء من خارج الجماعة منهم اثنان من حزب الوفد.. بجانب دور مباشر يقوم به عمرو موسى.. وليكن نائب الرئيس للشئون الخارجية ومبعوثه الخاص إلى العالم.. على أن يخرج حمدين صباحى وتياره الشعبى وتوجهه الناصرى من المشهد تماما.

كان تنفيذ هذه المبادرة شرطا أساسيا ليقبل صندوق النقد الدولى بمنح مصر القرض الذى تطلبه والذى يصل إلى أربعة مليارات وثمانمائة مليون دولار.. والأهم من القرض أن منحه لمصر يعيد الثقة الائتمانية إليها.

توسط خيرت الشاطر بطريقة غير مباشرة عبر وسيط من رجاله هو الدكتور هشام المحمدى لجس نبض عمرو موسى.. من سخرية السياسة أن الوسيط وهو رجل أعمال غير مشهور كان عضوا سابقا فى الحزب الوطنى وكسب الكثير من بناء مستشفيات اليوم الواحد فى زمن وزير الصحة إسماعيل سلام دون أن نعرف هل كان إخوانيا مندسا؟. أم تغيرت بوصلته بتغير النظام؟

كان على هشام المحمدى أن ينقل شروط عمرو موسى للقاء الشاطر لمناقشة المبادرة.. ولكن.. موسى وافق على اللقاء دون شروط مسبقة.. على أن اللقاء لم يحدث.. فقد تدخلت قطر وقدمت وديعة بثلاثة مليارات دولار.. أغنت الإخوان عن الحاجة لقرض صندوق النقد.. وكان هدفها أن لا يشارك أحد الجماعة فى الحكم.. وتسبب ذلك فى مزيد من حالة الاحتقان السياسى والشعبى.. انتهت بثورة 30 يونيو.

ويتذكر هشام رامز رئيس البنك المركزى أننى التقيت به فى واشنطن شتاء 2013 وكشفت له أسرار المبادرة وتفاصيلها.. مؤكدا أن مهمته فى العاصمة الأمريكية لإقناع صندوق النقد بمنح القرض لن يكتب لها النجاح.. فالشروط السياسية للقرض وأهمها تشكيل حكومة وحدة وطنية لم تتحقق بعد.. وما أن انتهينا من تناول العشاء فى «كافيه ميلانو» بحى جورج تاون حتى انصرف عائدا إلى فندقه ليجهز حقيبة العودة إلى القاهرة.. حاملا من المعلومات ما لم يتح لغيره من أعضاء الوفد المرافق له معرفتها.

وفى تلك الفترة أيضا.. أبدت قطر استعدادها لمساندة السلطة القائمة لو غيرت الحكومة.. بشرط أن يوافق مرسى على اختيار الدكتور نبيل العربى ليكون رئيسا للحكومة الجديدة.

ونبيل العربى هو أمين عام الجامعة العربية.. ساهمت قطر بقوة فى وصوله إلى المنصب.. وقبل ذلك كان مستشارا لها.. وفى الوقت نفسه يرتبط مع هيكل بعلاقة مصاهرة.. فهو زوج شقيقة زوجته.. كما أن ابنته مى متزوجة من أحمد هيكل.

وفى رؤية مبطنة بالسخرية يتعجب هيكل من أن تواجه مصر بحجمها الكبير دولة صغيرة مثل قطر.. مشيرا دون إعلان لثقافة مصرية تحرم تعدى الكبير على الصغير.. وإن كانت فى الوقت نفسه ثقافة تجبر الصغير على احترام الكبير.. لكن هيكل اكتفى بنصف المعادلة فقط.

إن قطر تعانى من عقدة «الحجم الصغير».. بمعناها الجغرافى والسكانى.. ولا نقول الجنسى.. وإن كان فرويد رائد التحليل النفسى لا يرى فارقا فى التصرفات المرضية بين دولة فى حجم النقطة.. وعضو ذكرى فى حجم الأستيكة.. فكل منهما يعوض النقص الذى يعانى منه فى الحجم باستعمال أشياء ترمز للكبر.. سيجار ضخم.. سيارة فارهة.. أو سياسة عنيدة ضد حكومات كبيرة لمجرد إثبات الذات.. وهو ما تفعل قطر.

لقد عوضت قطر ضعف الحجم ببناء قواعد عسكرية أمريكية على حسابها الخاص.. ومدت جسور تحت الأرض وفوقها مع إسرائيل.. ومولت عمليات مخابراتية مشتركة معها.. واشترت شركات ونوادى وجزرًا وبنوكًا ومحلات تجارية شهيرة فى العالم باستثمارات تصل إلى 200 مليار دولار.. لتثبت أنها موجودة على سطح الأخبار.. أكثر من ذلك دفعت مليونى دولار رشوة إلى أعضاء مؤثرين فى الفيفا لاختيار قطر مكانا لكأس العالم بعد عدة سنوات.. وأبدت استعدادها لتكييف الملاعب لتقام البطولة على أرضها.

والأخطر أن قطر مولت بتشجيع من إسرائيل عمليات بريطانيا وفرنسا العسكرية لإسقاط النظام فى ليبيا مما أدى إلى تفتيتها إلى ثلاث دويلات كما حدث فيما بعد مع العراق التى تفتتت إلى ثلاث دول والرابعة فى الطريق.. والسودان الذى انقسم إلى دولتين تمهيدا لانقسامه إلى سبع دول.

وساعدت قطر الإخوان خلال حكمهم لمصر بعد أن اطمأنت إلى أنهم سيهدمون الدولة المركزية ويسرحون الجيش ويقضون على الأجهزة الأمنية ويتركون البلاد عرضة للإرهاب والتفتيت.

حسب ما سمعت من اللواء رأفت شحاتة، مدير المخابرات العامة خلال حكم مرسى: إن جماعته أرسلت شبابا إلى تركيا وقطر للتدريب على أعمال المخابرات تمهيدا لحل الجهاز.. كما أنها أرسلت مجموعة ثالثة إلى ألمانيا للتدريب على تفكيك الأجهزة الأمنية.. وفى كل الأحوال أنفقت قطر على كل هذه البعثات.

إن عقدة الصغر فرضت نفسها من جديد على سياسة قطر تجاه الدول العربية.. ما دامت هى دولة صغيرة بالمولد فليتم لا تتفتت الدول العربية الكبرى مثلها بالمؤامرت التى تمولها من فوائض الغاز الطبيعى؟

والشاهد أنها تأثرت بهذه الفكرة من إسرائيل.. فالدولة الصهيونية هى أيضا دولة صغيرة.. تريد أن تصبح الدول العربية من حولها مثلها.. وفى الوقت نفسه أضعف منها.

وهذا ما يفسر اللعب القطرى والإسرائيلى مع كل المنظمات المسلحة فى اليمن والعراق ومصر والسعودية وغيرها.. وهى سياسة تصب فى النهاية فى صالح إسرائيل.. المتحكم الوحيد فى المنطقة الآن.. حسب ما سنعرف فيما بعد من معلومات مصدرها البنتاجون نفسه.

وحسب ما نشر محمد الباز فى «الفجر» يوم الخميس 12 مارس 2014 فإن طارق حجى كان فى ضيافة حمد وموزة على مائدة طعام.. وسمع من موزة ما يؤكد عقدة الحجم التى تعانى منها بلادها.. قالت:

«لا أعرف لماذا تريد مصر أن تكون الكبيرة علينا طوال الوقت.. لدينا مال أكثر.. ولدينا كفاءات كثيرة.. ولابد أن يكون لنا دور.. وهو ما سنصنعه.. وعلى مصر أن تتخلى عن غرورها.. لأنه لن يفيدها فى شىء».

وحاول طارق حجى أن يفهمها أن مصر كبيرة بتاريخها ودورها وقدرها. لكن موزة لم تقتنع قائلة: «لقد انتهى زمن السمك الكبير الذى يأكل السمك الصغير.. وبدأ عصر السمك الصغير الأكثر سرعة ومهارة وهو ما يمنحه دورا فى تحريك الأحداث ليس فى المنطقة فقط وإنما فى العالم كله».

ولم ينس طارق حجى أن يشير إلى ما يثبت قوة موزة التى تمارسها حتى على زوجها علنا:

«لقد احتدت على حمد بشكل ملحوظ مما أحرج ضيوفهما».

ويتعامل هيكل مع قطر بخفة لا تتناسب مع عمق تحليلاته وربما كان السبب شعوره بالحرج من سوابق التعامل معها.

فقد طالب على سبيل المثال فى حوارتلفزيونى بث يوم 3 يناير 2014: أن تمنح قطر فرصة لمراجعة نفسها.

وأضاف: «وأنا أعتقد أنها مضطرة لمراجعة حساباتها فلا يمكنها الاستمرار فى ذلك».

لكن.. هيكل لم يذكر متى تضطر قطر إلى مراجعة حساباتها؟. بعد سنة.. بعد عشر سنوات.. بعد خراب العالم العربى؟

لقد تدخلت دول مجلس التعاون الخليجى لمد الجسور بين القاهرة والدوحة وقدمت مبادرة من عدة نقاط تخص الطرفين بجانب نقاط أخرى توسع من مساحة المبادرة لتمتد إلى دول عربية أخرى تتدخل قطر فى سياستها الداخلية بدعم منظمات مسلحة تقوض سلطتها وسلطانها.

تلخصت النقاط الخاصة بمصر فى إيقاف تحريض الجزيرة على نظام ما بعد يونيو فى مصر.. والكف عن دعم وتمويل الجماعات الإرهابية وعلى رأسها جماعة الإخوان.. بجانب تسليم الهاربين فى قطر على ذمة قضايا جنائية فى مصر.

أما الشروط التى تمتد إلى دول عربية أخرى فمنها إيقاف دعم جماعة الحوثيين فى اليمن.. وحزب الله فى لبنان.. وجماعات الشيعة فى البحرين والمنطقة الشرقية الغنية بالنفط فى السعودية.

ووافق حاكم قطر الجديد تميم بن حمد على تلك الشروط.. وطلب مهلة شهرين للتنفيذ.. وعندما التقى بوزير الخارجية السعودى سعود الفيصل فى باريس بعد أكثر من شهرين قال له فى نشوة وثقة:

أرأيت.. لقد نفذنا كل ما طلب منا!

وتعجب الوزير السعودى المخضرم من الإجابة.. فقطر لم تلتزم ببند واحد من بنود المبادرة.

لكن.. ما سد الطريق أمام أى أمل فى إعادة قطر إلى صوابها أنها طلبت لتسوية الأمور مع مصر أن يبادر السيسى بزيارتها.

وعلقت دول خليجية على الطلب قائلة: «لو كان القطريون ينظرون إلى مصر -الدولة الكبرى- بتلك النظرة فكيف ينظرون إلينا نحن؟».

وكانت النتيجة أن سحبت السعودية والإمارات والبحرين سفراءها من الدوحة وهددت السعودية بإجراءات إضافية.. مثل منع الطائرات القطرية من التحليق فوق مجالها الجوى بجانب إجراءات حصار أخرى.

إن التحدى الذى لا يستطيع هيكل مواجهته أو قبوله هو أن يخرج بشجاعة ويعلن رأيه فى قطر وسياستها وحكومتها وأسرتها الحاكمة.

لكنه.. لن يفعل ذلك.. فالمصالح تغلب المبادئ.

■ ■ ■

وهناك من يتصور أن مصالح هيكل مع قطر تتجاوز الجزيرة إلى بيزنس أحد أبنائه معها.. فقد كان أحمد هيكل عبر شركته «القلعة» ممن شاركوا فى مناقصة لاستيراد الغاز القطرى إلى مصر.. وبدا أن أحمد هيكل على وشك الفوز بها.. ولكن.. وزير البترول وقتها المهندس أسامة كمال قرر إعادة النظر فى المناقصة.. وبعدها ألغيت.. وكان رد فعل نظام الحكم الإخوانى.. إقالته.. وجاء وزير بترول آخر إخوانى متحمس لقطر.

وقرب أحمد هيكل رئيس الشركة القابضة للغاز منه المهندس محمد شعيب.. بل.. وعينه فى شركته فى اليوم التالى لخروجه من منصبه.. مستفيدا من قانون المعاش المبكر عند سن 55 عاما.. فى حالة تحتاج إلى فحص وإيضاح.. كيف ينتقل المسئول فى هيئة حكومية بكل ما يملك من معلومات إلى شركة خاصة ويصبح فى خدمتها؟

وعلى خلاف ما يقول هيكل انتقادا لعلاقة الثروة بالسلطة وجدنا تعاونا فى البيزنس بين أبنائه وأبناء مبارك بعيدا عن الصراعات والخلافات الحادة بين الآباء.. وكأن ما يقال من كلمات سياسية براقة لا يمت بصلة للصفقات السمينة.. المغرية.

«لكننى أتجاوز عن ذلك.. من باب أن الآباء لا يجوز محاسبتهم على تصرفات الأبناء.. وإن كنت لا أقبل شخصيا أن تتناقض مصالح عائلتى مع ما أؤمن به من أفكار وما أمشى فيه من طريق».. فلو كنت عاجزا عن إقناع عائلتى بما أدعو إليه من مبادئ.. فكيف اقنع به غيرها فى دائرة أوسع وأعرض؟

وهناك من قال تعليقا على هذا الجزء من المقال: «إن مسئولية هيكل عن أبنائه لا تختلف عن مسئولية جمال عبد الناصر عن أبنائه».. ولكن.. هناك فى الحقيقة أكثر من فرق.. إن لجوء أبناء عبد الناصر للبيزنس حدث بعد رحيله.. ودون استفادة من نفوذه.. أما لجوء أبناء هيكل إلى البيزنس فكان فى حياته وربما باستفادة من نفوذه ولو لم يتدخل فى ذلك مباشرة.. يضاف إلى ذلك أن تبريرات هيكل لما فعل أبناؤه لم تكن حقيقية.. والأفضل فتح فصل خاص فى الكتاب لذلك.

■ ■ ■

لقد تسامحت فى بيزنس أبناء هيكل وقدمت أعذارا لم اقتنع بها.. لكن.. ما أثار قلقى على هيكل وفجر خلافى معه ذهابه إلى مرسى فى قصر الاتحادية ليقضى ساعات طويلة معه هناك حسب ما قرأت فى الصحف.

كنت قد عرفت من هيكل مباشرة أن الزيارة سبقتها مكالمة تليفونية بينه وبين مرسى استمرت نحو الساعة قبيل سفر مرسى إلى طهران ليلقى كلمة مصر فى مؤتمر عدم الانحياز.. ويسلم قيادة المؤتمر إلى إيران.

وحسب ما قال لى هيكل فإن مرسى هو الذى اتصل به ليهنئه بالعيد فوجدها هيكل فرصة ليلخص له خبرته الطويلة والعميقة بإيران.. وراح يشرح له أهميتها.. وكيفية التعامل معها.. خاصة فى ظل صعود تركيا.. ورغبتها الحادة فى إعادة مجد الإمبراطورية العثمانية.

لكن.. على حد قول هيكل فإنه وجد مرسى «شخصا مسطحا لا يتسم تفكيره بالعمق».. ودلل على رأيه بأن رسم بسيف يده خطا مستقيما بالعرض.. تعبيرا عن السطحية.. ثم رسم بسيف يده خطا متقاطعا بالطول.. تعبيرا عن عدم العمق.

وسألت هيكل فى المقال (والمجتمعات بخير طالما تسأل حسب ما كتب بخط يده): لو كان مرسى مسطحا.. تافها.. ضحلا.. لا يستوعب شيئا مما يسمع.. فلماذا ذهبت إليه؟. ما الذى خرجت به بعد أن تكلمت معه واستمعت إليه؟. هل تحمست لتلك المقابلة حتى تضيف لسجلاتك عن الشخصيات التى عرفتها رئيسا إضافيا؟. هل ينقص السجل بعد عبد الناصر وديجول وخروتشوف وغيرهم رئيسا مثل مرسى؟. هى يشرفك ضمه إلى

سجلك وتعليق صورته معك على جدران مكتبك كما تفعل مع باقى الشخصيات التى التقيت بها؟

ولا أزايد على أحد لو قلت إننى رفضت لقاء مرسى ثلاث مرات.. مرة مع رؤساء التحرير.. ومرة ثانية مع الإعلاميين التلفزيونيين.. ومرة ثالثة بدعوة مباشرة من أحد المقربين من مرسى والمسيطرين عليه.. وقد سعى الرجل إلى مقابلتى متصورا أننى يمكن أن أؤثر فى الصحفيين والإعلاميين الذين عملوا معى من قبل متفضلا بالقول «إنهم تلاميذي».. «ولى كلمة عليهم».

وكان رأيى وكنت صادقا أننى تركت كل من عمل معى يتصرف بحرية كما يشاء.. وهو ما منح كلًا منهم شخصية مختلفة ومستقلة عن الآخرين.. ولو كنت فرضت عليهم نفسى لخرجوا جميعا نسخة مشوهة منى.

وأنهيت قائلا: «لم أضغط على صحفى وهو تحت رئاستى فكيف أضغط عليه وقد أصبح نجما مستقلا يسبح فى فضاء صنعه بنفسه وموهبته؟».

وتقبل الرجل على مضض تفسيرى.. واعتذارى.. لكنه.. لم يحتمل رأيى الصادم فى مرسى وقد أوصلته إلى مسامعه بلا تردد: «إننى أشعر بالعار من وجود مرسى فى الرئاسة».. «أخجل من نفسى وأمتى وبلدى التى وصلت إلى هذا الهوان».

وضغط الرجل على أعصابه كاتما غيظه متسائلا عن الحيثيات التى استندت عليها قبل البوح برأيى؟

قلت: أنت تعلم قبل غيرك بحكم موقعك المتميز فى الجماعة أن مرسى كان آخر شخص جرى التفكير من جانبكم فيه للترشح لمنصب الرئيس.. لم يكن خيرت الشاطر وحده المنافس الذى جرى استبعاده.. كان هناك أيضا أسامة ياسين ومحمد البلتاجى.. لكن.. فضلتم مرسى لأسباب خاصة بكم.. إنه ضعيف.. مريض.. يمكن السيطرة عليه.. فكان ما كان.

وأنهيت كلامى قائلا: «إن رأيكم فيه هو نفس رأيى.. أنه «استبن» لغيره منذ ظهر على سطح الحياة السياسية فى انتخابات برلمان 2005.. ولكن الحياء يمنعكم من الكشف عن ما فى صدوركم».

ونقل الرجل بعد أن فشل فى مهمته ما قلت إلى مرسى فطلب من مدير المخابرات وقتها رأفت شحاتة اعتقالى.. حسب ما سمعت من شحاتة تليفونيا بعد أن أصبح مستشارا أمنيا لرئيس الجمهورية فى أعقاب ثورة 30 يونيو.

كان شحاتة فى أبو ظبى عندما تلقى مكالمة من مرسى يطلب فيها اعتقال ثلاثة وصفهم برأس الفتنة (أنا وعمرو أديب وليس الحديدي) واستشار شحاتة أحد مساعديه فيما طلب منه.. لكن مساعده رفض وقدم لرئيسه مبررات مناسبة وقانونية للرفض.. أبسطها: إن المخابرات العامة جهاز معلومات وليس جهاز قبض واعتقال.

وقبل السعى إلى الاعتقال طلب أسعد شيخة نائب رئيس الديوان ومسئول الملفات الأمنية فى الرئاسة من تلك الأجهزة البحث عن فضيحة «تخرسني» وتهدم سمعة «الفجر» التى هاجمت مرسى على صفحاتها وسخرت منه منذ اليوم الأول لتوليه الحكم.

وكان الرد: «ليس لدينا ما يشين الصحفيين المعارضين.. كما أننا بحكم القانون ليس لنا الحق فى تجاوز دورنا وهو رفع تقارير المعلومات إلى ما هو أبعد».

واقترح وزير العدل وقتها أحمد مكى -وكان على رأس الحضور- اعتقال السياسيين المعارضين لتخويف الإعلاميين المتمردين فقيل له: «أصدر لنا أمرا باعتقال من تريد ونحن ننفذ».. لكنه.. تراجع.. وبقى صامتا إلى نهاية الاجتماع.

والمؤكد أن مرسى لم يستوعب نصائح هيكل التى أفرط فى شرحها.. فلم تمر عدة أيام على زيارة هيكل لقصر الاتحادية حتى حفر مرسى قبره بيده ووقع إعلانه الدستورى الديكتاتورى «المكمل» الذى منحه سلطات مطلقة.. وحرم الطعن عليها.. ومهد الطريق إلى أحداث الاتحادية الدامية.. الأحداث التى كشفت حجم العنف الكامن فى الجماعة.. وشطبت خدعة أنها جماعة سياسية بعيدة عن الإرهاب.

أكثر من ذلك.. جمع مرسى حلفاءه من مختلف التنظيمات الجهادية تحت قبة الصالة المغطاة وأعلن قطع العلاقات مع سوريا.. معلنا الحرب المقدسة على الشيعة.. ضاربا بنصيحة هيكل بالتقارب مع إيران عرض الحائط.. وعكس ذلك الحشد المتشدد أفكاره على الطبقات المتواضعة الثقافة فبدأ مسلسل قتل الشيعة وحرق بيوتهم وسحل جثثهم فى مصر.

وأتصور أن هيكل من القلائل الذين لم يفاجأوا بكل هذا العنف.. فقد عاش مؤامرة تنظيم الإخوان فى عام 1965 لحظة بلحظة.. وكانت المؤامرة تستهدف قتل جمال عبد الناصر.. وتفجير القناطر والسدود.. ونسف المنشآت العامة.. وإغراق مصر فى بحر من الدم قبل الدمع.. فى سيناريو شاهدناه فيما بعد.. عقب 30 يونيو.. «إما أن يحكمونا أو يقتلونا».. «إما نهب مصر أو حرقها».

ولا بد أن هيكل الذى يتمتع بذاكرة قوية تستدعى الأحداث والشخصيات لم ينس أن قائد تنظيم 1965 هو سيد قطب.. مؤسس تيار التكفير والتدمير الذى يسيطر أنصاره مثل محمد بديع وخيرت الشاطر ومحمود حسين على الجماعة الآن.. وقد جند القطبيون الهاربون إلى الولايات المتحدة محمد مرسى فى منتصف الثمانينات أثناء دراسته للدكتوراه.. فهو واحد منهم.. وأداة طيعة بين أيديهم.

ما الذى تصوره هيكل صاحب الخبرات الاستراتيجية العريضة والعميقة فى التحليل السياسى وهو يلتقى تلك القيادة القطبية الإرهابية؟. هل تصور أن فوج الذئاب سيصبح سربا من عصافير الكناريا؟. أم أن شظايا القنبلة ستتحول إلى أوراق قرنفلة؟

والأخطر.. أن هيكل تناسى بمزاجه، على ما يبدو، جملة مرسى الشهيرة التى أثارت غضب الناصريين وأساءت إلى جمال عبد الناصر مباشرة.. جملة: «الستينيات وما أدراك ما الستينيات».. ألم يكن هيكل رمزا للستينيات؟. ألم يكن هو تقريبا الوحيد الحى المؤثر من الستينيات؟. ألم يكن مقصودا بتلك الجملة العدائية المهينة لمرحلة تاريخية شارك هيكل فيها ويعتبرها ونحن معه ذروة الكرامة الوطنية.. والتنمية الحقيقية.. والعدالة الاجتماعية؟. هل نسى هيكل أنه كان على رأس القائمة السوداء للجماعة لعقود وسنوات؟. إن الذاكرة الحديدية أحيانا تكون ذاكرة اختيارية.. مزاجية.

ألم تكن القاهرة فى الستينات العاصمة الثالثة للعالم بعد واشنطن وموسكو لدورها فى التحرر الوطنى وعدم الانحياز حسب شهادة هيكل نفسه؟. ما الذى جعله يتجاوز عن تلك الإهانة الموجهة إليه مباشرة ويذهب ويلتقى بمن قذفها فى وجهه ووجوهنا؟

يضاف إلى ذلك.. أن هيكل فتح بيوته لقيادات الجماعة.. استقبلهم قبل الانتخابات وبعدها.. قبل أن يصلوا إلى السلطة وبعد أن غربت عنهم.. وربما تناول معهم «عيش وملح».. متصورا أنهم مصريون يحرصون على العيش والملح.. ويبكون على من يخونه.

وربما لا يتذكر أحد الآن أن هيكل مد جسوره مع قيادات الإخوان قبل سنوات من ثورة يناير.. فقد دعا الدكتور عصام العريان إلى بيته الريفى فى برقاش ضمن مجموعة من المثقفين والسياسيين المتنوعين لحضور لقاء مفتوح مع الرئيس الإيرانى وقتها محمد خاتمى.

ألم ينتبه هيكل إلى خيانات الإخوان المتكررة لكل من وقف بجانبهم وساندهم وتحمس لهم؟. هل اعتقد أنه مختلف.. سيضعونه بين رموش عيونهم فى مكانة مختلفة مميزة دون أن يمس هو وعائلته بسوء؟. هل هى جاذبية السلطة ولو كانت ملتحية أو متشددة أو متشنجة؟

لقد وقف عدد من السياسيين والإعلاميين والحقوقيين إلى جوار الجماعة فى الانتخابات الرئاسية بدعوى أن مرسى ثورى ومنافسه أحمد شفيق من بقايا نظام مبارك.. واتفقوا مع مرسى على مجموعة من المطالب ينفذها.. وقواعد يمشى عليها.. وعرف ذلك باتفاق «فيرمونت».. على اسم الفندق الذى حدث فيه اللقاء والاتفاق.. لكن.. ما أن وصل مرسى إلى الحكم حتى وضع كل ذلك تحت حذائه.. انتهت «المشاركة» بالمغالبة.. وعض الجانب غير الإخوانى أصابع الندم.. وحاولوا العودة إلى صفوف المعارضة ضد الإخوان.. لكن.. لم يكن من السهل قبولهم مرة أخرى.. أو الثقة فيهم من جديد.

سكب الإخوان القهوة على ثياب الحلفاء.. ولوثوا سمعتهم.. ويمكن القول ولو من باب المبالغة الأدبية أنهم اغتصبوهم.. وألحقوا بهم العار.. فى حالة غدر لم يستوعبها الضحايا.. فانسحب بعضهم بعيدا بعد أن شعر بالفضيحة قبل السذاجة.. وسعى البعض الآخر إلى المبالغة فى الهجوم على الإخوان.. لكن.. لا أحد سمعهم.

ولست أسخر عندما أقول: «إن شرف السياسى أو الإعلامى مثل عود الكبريت لا يشتعل إلا مرة واحدة».. ولا تصلح عملية الترقيع.. مهما كانت متقنة.. ومحكمة.

لماذا لا ينسحب الرجال عندما يسقط المسرح.فوق رؤوسهم؟. لماذا لا يعودون إلى غرف نومهم قبل أن يسمعوا لعنات الناس الحادة تطاردهم فى اليقظة والمنام؟

إن لا أحد مهما كان بارعا مخادعا مناورا يستطيع أن يستأجر بيتا فى كل العصور والأزمنة.. ومهما كانت الصبغات والمساحيق فإن الزمن كفيل بإبراز تجاعيد النفس قبل كرمشة الوجه.

لقد كان ذهاب هيكل إلى مرسى نقطة تحول فارقة فى رؤيتى وتقييمى له وإعجابى به.. لحظة وعى تفرض المحاسبة والمراجعة.. واستندت فى ذلك إلى ما قاله فى أولى سطور كتاب «زيارة جديدة للتاريخ».. حيث حرص من يجد الجرأة على مراجعة المألوف والمعروف.. ومراجعة نفسه.. هو واضع القانون ومشرعه فلماذا لا يطبق عليه؟

هل للكاتب شخصيتان.. شخصية للكتابة وشخصية للعلاقات العامة؟. هل هناك بدلة يلبسها للشغل.. وبدلة أخرى يلبسها للمقابلات الرسمية؟

وأشد ما يؤلم فى واقعة ذهاب هيكل إلى مرسى ما همس به البعض، وإن اختلفنا معه، بأن الزيارة لم تكن خالصة لوجه مصلحة عامة.. وإنما شابتها مصلحة خاصة.. تتعلق بابنه حسن الهارب على ذمة قضية جنائية ينظرها القضاء.. لكنى.. لا أعتقد أن هيكل فاتح مرسى فيها.. بل ولا أتصور أنه لمح إليها من قريب أو بعيد.. فهو رجل يحافظ على كرامته مهما كان الثمن الذى يدفعه.. وإن كان من الصعب عليه أن يكون الثمن حرية أحد أبنائه.. أعز ما يملك.

لكن.. أعتقد أن شبهة المصلحة المباشرة كانت عليها أن تمنعه من الذهاب خشية الضرب تحت الحزام.. كما حدث.

ولم أكن وحدى من محبى هيكل الذى غضب من تصرفاته السياسية المنحازة للإخوان.

كان الدكتور حسام عيسى وهو من مريدى هيكل، ضيفى على الهواء فى برنامج «آخر النهار» فى وقت أعلن فيه هيكل قبل 30 يونيو أنه مستعد للتوسط بين الجماعة وجبهة الإنقاذ بجانب القوى الوطنية الأخرى.. فعلق حسام عيسى قائلا: «إنه يرفض هذه الدعوة».. بل أضاف أنه «سيقاطع أحاديث هيكل التلفزيونية».. لن يشاهد المزيد منها.

والمؤكد أن شجاعة حسام عيسى جعلته يصرح بما فى صدره علنا.. وهو ما يتحرج منه كثير من المقربين من هيكل.. فهم لا يريدون إغضابه.. ولا يريدون تعكير صفو العلاقة بينه وبينهم.. وإن كان بعضهم تجرأ وانتقده فى لقاءات محدودة بعيدة عن العيون والكاميرات فى إنذار جديد بالخطر يهدد حب الصفوة الثقافية والصحفية لشيخهم الجليل.

أنا شخصيا كتمت ما شعرت به تجاه مواقف هيكل فى زمن الإخوان ولم أفصح عنه.. لكننى فى الوقت نفسه قاطعت الاتصال به.. ولم أعد أتحمس للجلوس معه.. اكتفيت بموقف سلبى فى محاولة مؤقتة للبحث عن تفسير لا يصل إلى تبرير.. لكننى اتصلت به عندما حرقت مكتبته الأثرية فى برقاش.. كان ذلك استجابة لحضارة المشاطرة فى النكبات.. الحضارة التى ورثناها عن الفراعنة ونحتفظ بها فى جيناتنا.

على أن المشاطرة لم تحد من المفاجأة التى أعلنها هيكل متهما الإخوان بتنفيذ الجريمة.. وهو ما نفاه اثنان من قيادات الجماعة (الدكتور محمد على بشر والدكتور عمرو دراج) ذهبا بتكليف إلى زيارته.. فهل صحيح أنه كان على حق فى اتهامه؟. أم أنه وجدها فرصة للإنسلاخ من ارتباطه بالإخوان متنقلا من الدفاع عنهم إلى الهجوم عليهم؟

ولم يتوقف أحد ليسأل هيكل: هل آمنت بأن الإخوان لا يثقون فى أحد من خارجهم؟. هل صدقت أنهم يستغلون الشخصيات المؤثرة.. ثم يتخلصون منها؟. هل تيقنت من أنهم لن ينسوا لك مواقفك القديمة ضدهم مهما طال الزمن؟

لقد تصور هيكل بحكم خبرته بخبايا السياسة الأمريكية أن الرهان على الإخوان هو رهان على مستقبل تدعمه وتؤيده وتسانده واشنطن التى تتصور أنها سيدة العالم والمتحكمة فيه.. لكنه.. خسر الرهان.. على أنه لم يتردد فى الانتقال بسرعة مذهلة إلى الجانب المضاد.. وأيد تدخل الجيش لتنفيذ مطالب الشعب الذى خرج يوم 30 يونيو.. انتقال مذهل.. يلفت النظر.. ويكشف عن موهبة مغناطيسية تتجه إلى كل سلطة بقوة الطبيعة.. حدث ذلك فى شهور قليلة.. فهل نثق فى انحيازه الأخير أم نتوقع منه انقلابات وتحولات وانعطافات أخرى ناحية سلطة جديدة مختلفة؟

■ ■ ■

ما الذى جعل نقطة الماء تفيض عن الكوب الممتلئ بها؟. ما الذى جعلنى أتجاوز صمتى وأفصح عن ما فى صدرى وأهدد علاقتى المتينة بهيكل؟. إنها رحلته الأخيرة إلى بيروت.. فى الشهر الأخير من عام 2013.

لقد التقى هيكل فى بيروت بالسفير السورى هناك على عبد الكريم على وتلقى منه رسالة تقدير من بشار الأسد.. الحاكم الدموى الذى أباد أعدادا يصعب حصرها من شعبه.. هل مثل هذا الرجل يقبل منه تقدير؟.. وهل يحتاج هيكل الذى يرفض التكريم مثل هذه الرسالة المكتوبة بدماء أبرياء لا ذنب لهم سوى أن القدر دفع إليهم برئيس قاتل وذابح ومدمر ولا يشعر بالذنب؟

لست بالقطع مع فصائل القتال المعارضة المنتمية للقاعدة.. لكننى لست أيضا مع استمرار النظام السورى.. هناك طريق ثالث.. نتخلص فيه من الفاشية الدينية والديكتاتورية السياسة.

ولو كان هيكل اعترف بأنه سبق أن توسط بين الولايات المتحدة وإيران فهل تأتى رحلته إلى بيروت للتوسط من جديد بين الدولتين عبر حزب الله بعد أن تغيرت سياسة واشنطن تجاه طهران؟

وهناك من يقول: إن زيارة هيكل وساطة بين القاهرة وطهران كلف بها هيكل وفاتح بها حسن نصر الله الذى التقاه مرتين فى أيام معدودة.. ربما.. لكن.. لو صح ذلك لكنا أمام أسئلة أشد حرجا.

لقد ساندنا حزب الله فى حربه ضد إسرائيل.. ولكنه ساهم مع حماس فى عملية اقتحام السجون وإخراج رجالهما منها.. وخلال ساعات كان سامى شهاب المقبوض عليه على ذمة قضية أمن دولة فى بيروت وسط احتفال بهروبه.. متقلدا من أمين عام الحزب النياشين والقبلات.. ضاربا بالقضية المتهم فيها عرض الحائط.

ويسجل أرشيف الصحف وتسجيلات اليوتيوب تصريحات معادية من نصر الله ضد الجيش المصرى.. وتضمنت تلك التصريحات تحريضا للضباط للانقلاب على قادتهم.

ونضم القضية (رقم 275 لسنة 2013) المتهم فيها مرسى بالتخابر اتصالات بين قيادات الجماعة وعناصر مقاتلة من حزب الله رصدتها المخابرات العامة.. حسب تقريرها المرفوع لقاضى التحقيق فيها.

لقد شارك فى اقتحام السجون ما بين 70 إلى 90 عضوا فى حزب الله جاءوا من قطاع غزة وانضموا إلى عناصر حماس.. كما رصدت اجتماعات بطلب من التنظيم الدولى للإخوان شارك فيها حزب الله والحرس الثورى الإيرانى المرتبط به.. وتكرر ذلك كثيرا.. بما يؤكد توحد التنظيمات الإسلامية المختلفة والمتناقضة عند الضرورة.

يضاف إلى ذلك أن أول خلية إرهابية فجرت خط الغاز الموصل إلى مصانع أسمنت فى وسط سيناء قبل أن يصل إلى إسرائيل والأردن كانت تحت إشراف خبير إيرانى جاء من السودان.

ومن الصعب أن تقبل القاهرة بمد جسورها رغم أهميتها إلى طهران فى الوقت الذى تشعر فيه دول الخليج المساندة والداعمة لمصر ماليا وسياسا ودبلوماسيا بالخطر من إيران.

ولو كان حوار هيكل ومرسى قد انتهى بإعلان «الطبخة» المسمومة فى الإعلان الدستورى المكمل فإن حوار هيكل مع نصر الله انتهى ببيانات إيرانية مستفزة اعتبرت تدخلا فى الشأن المصرى.

وفى حديثه إلى صحيفة «السفير» أعلن هيكل أن السيسى لن يترشح للانتخابات الرئاسية.. وأثار التصريح قلق بعض المقربين من هيكل فخرجوا يرفضون ما قال.. وعبروا عن ذلك فى برامج «التوك شو» الليلية.. فكان أن اتصل بهم شارحا.. ومبررا.. وخرج بتصريح يلقى فيه باللوم على الصحيفة التى فهمت كلامه خطأ.. قائلا: «إن السيسى لن يرشح نفسه وإنما يرشحه الناس».

وهنا أصاب كبد الحقيقة.. فالسيسى وضع شروطا لقبول الترشح.. منها أن يحظى الاستفتاء على الدستور بنسبة إقبال وتصويت مرتفعة.. وأن تخرج الحشود التى خرجت فى 30 يونيو فى 25 يناير (الذكرى الثالثة للثورة) لتطالب به.. أن يصوت الشعب الذى يريده ويطالب به فى الميادين قبل صناديق الانتخاب.

ويمكن القول إن السيسى عنده حق.. فعندما قرر الانحياز إلى الشعب مقصيا الإخوان عن الحكم لم يكن ليهدف إلى الوثوب إلى الرئاسة.. وخشى أن يفهم ترشحه من تلقاء نفسه بأنه فعل ما فعل من أجل منصب أعلى.

لقد أثار هيكل بما قال القلق بين المصريين المتحمسين للسيسى فى وقت تمر فيه البلاد بحالة من عدم الاستقرار لا ينقصها مزيد من البلبلة.. وكثير من الفتنة.

ولم يسكت هيكل بعد كل ما أثاره تصريحه البيروتى فقد عاد ليقول كلاما يشابه الرقص على الحبال.. «إن السيسى حائر».. مثلا.. أو «يعز عليه خلع سترته العسكرية».. مثلا.. أو «هو مرشح الضرورة».. مثلا.. أو متردد.. مثلا.. وأعادت هذه الجمل من جديد حالة الفتنة والبلبلة.

وفى تحليل العالم النفسى الشهير الدكتور أحمد عكاشة فإن «السيسى ليس مترددا».. وإنما هيكل بحكم السن «هو المتردد».

وبمزيد من التفسير أضاف: إن السيسى يتأنى فى اتخاذ قراره.. فالشخصية العسكرية لا تعرف التردد.. لكنها.. تعرف التروى.. وهيكل لا يعرف شيئا عن العسكرية».

واستطرد: «إن الشخص الذكى هو الذى يتخذ القرار بعد تفكير عميق ومدروس أما الغبى فهو الذى يقول إنه على يقين من الأشياء وإنه دائما على صواب».

وحسب رؤيتى للسيسى وقد شاءت الظروف أن ألتقى به أكثر من مرة فإنه رجل متدين بسماحة الصوفيين.. ابن بلد.. تربى فى الجمالية.. يمتلك موهبة تقييم الشخصيات.. لا يتكلم فى موضوع إلا بعد دراسته.. يفيض فى الشرح بأكثر من طريقة.. يعرف كيف ينتقل من النقاش إلى الحسم.. ويؤمن بأن الله سوف ينصره فى النهاية.

وحسب معلوماتى أيضا: فإنه التقى بقيادات مؤثرة وقادرة فى منتصف سبتمبر 2013 ليناقش معهم أمر ترشحه.. وبعد ثلاث ساعات من محاولات الإقناع تلاحقت فيها الشواهد والبراهين على أهمية الطلب فض الرجل الجلسة بجملة قصيرة خاطفة: «إننى لم أقل نعم بعد».. فأعاد الجميع إلى نقطة الصفر.. على أن الحضور اعتبروا النتيجة التى وصلوا إليها إيجابية.. فهو لم يقل «نعم».. لكنه أيضا لم يقل «لا».

والسيسى بحكم طبيعته الشخصية وخبرته فى المخابرات العسكرية لا يكشف بسهولة عما فى أعماقه.. ولا يوحى لمن يتحدثون إليه باتجاه القرار قبل اتخاذه.. لكنه.. «ليس حائرا».. حسب تفسير هيكل.. وإنما يحسب كل صغيرة وكبيرة قبل أن يكشف عن ما فى عقله قبل صدره.

ولو كانت «البدلة» العسكرية تعز عليه قيراطا فإن مصر تعز عليه مائة قيراط.. فقد وضع حياته قبل بدلته على كف الخطر قبل أن يقرر ما فعل فى 3 يوليو.

ولم يكن وصف «مرشح الضرورة» الذى أطلقه هيكل على السيسى وصفا ملائما.. فقد بدا من الوصف بأننا لا نجد غيره.. ومضطرون إليه.. وهذا غير صحيح.. ففى مصر غيره يصلحون لمنصب الرئيس.. لكنه.. قدم العربون قبل أن يتقدم للرئاسة.. تجاوز بما فعل حدود الكلام والوعود والتصريحات.. وأنقذ مصر من مصير مظلم قرر أن يكتم أنفاسها خمسة قرون على الأقل.. كما قال السيسى نفسه.

«إن أخطر ما فى هيكل أن تعبيراته الأدبية تؤخذ على أنها تحليلات سياسية.. كما أنها تقبل اجتهادات متناقضة معها فى وقت لا يحتمل مسك العصا من منتصفها.. وفى مرحلة لا تحتمل اللعب بالألفاظ.. البلاغة الحقيقية فى مثل هذه الظروف الحرجة هى الصراحة».

«لقد كنت أتوقع أن يكون هيكل أكثر حرصا وهو يتناول مثل هذا الموضوع الذى تترقبه مساحات عريضة من الشعب المصرى ترى فى السيسى أملا ورجاء.. بل ولا ترى غيره على الساحة يستحق أن يصعد إلى قمة السلطة والمسئولية».

إن هيكل هو الذى بدا حائرا.. ونقل ذلك إلى مستمعيه ومشاهديه وهم يشكلون حجما لا باس به.. مما جعل بعضهم يقاطع أحاديثه.. والبعض الآخر يسحب منه الثقة.

لقد تعود هيكل ألا يرد على منتقديه.. بل ويزعم أنه لم يقرأ ما كتبوه ضده.. لكننى لا أنتقده.. وإنما أسأله كما تعودت.. فى انتظار الإجابات التى هى حسب ما قال: «اجتهادات بعضها يصل إلى هدفه وبعضها سهام تطيش فى الفضاء».. خاصة أن الزمن تغير.. وأصبح للعالم ذاكرة عريضة.. عميقة.. دائمة.. لا تشيخ.. تسع الجيد والقبيح..

يصعب تجاهلها.. اسمها الإنترنت.. لا ترحم من يسكت عن حقه فى الدفاع عن نفسه.. ويفرط فى توضيح الحقيقة.. ليس فقط لأجيال تعرفه.. وربما تسامحه أو تجامله.. وإنما أيضا لأجيال قادمة.. لا تعرفه ولن تسامحه.

انتهى المقال الأول بعد أن حذفت منه ما يمكن أن يكون تكرارا.. وأضفت إليه ما يمكن أن يكون دعما.. وواضح أن الهدف منه كان السؤال منا.. وطلب إجابة من هيكل.. لكنه.. لم يقبل.. وتصرف بطريقة غير متوقعة فرضت على أن أكتب المقال الثانى وأنشره فى الفجر يوم 6 فبراير.. بعد أربعة أسابيع تقريبا انتظرت فيها ردا وتفسيرا وتبريرا.

3

حكايات وشائعات وخرافات بلا وثائق أو مستندات!

أعترف مسبقا أن المقال الثانى كان أصعب وأشد.

لم يكتف بأسئلة تنتظر إجابات.. وإنما سرد وقائع تثير أسئلة.. وهنا تكمن الصعوبة.

كما أنه رصد أدلة سجلها هيكل بنفسه تؤكد خطأ بعض ما ينشر من معلومات.. وهنا مربط الشدة.

وسوف أسرد المقال.. بنفس القاعدة التى سردت بها المقال الأول.. حذف ما يثير التكرار.. وإضافة ما يدعم الأفكار.

وفى كل الأحوال سيكون هيكل مصدرى وشاهدى.. أخذت منه.. وأعدت إليه.. مستندا على القاعدة الذهبية التى أرساها الدكتور طه حسين: «إن حرية القارئ تبدأ بعد أن تنتهى حرية الكاتب».. والمعنى أن ما أن ننشر ما كتبنا حتى نتقيد به.. وأصبح حق من يقرأ مفتوحا.. بلا حدود.

بدأت المقال بجمل تتحدث عن تصورى للكتابة قائلا:

لم أحم كتاباتى بقميص واقٍ من الرصاص.. ولم أضع فى جيبها بوليصة تأمين ضد الموت اغتيالا.. أو تشهيرا.

رفضت أن تكون الكتابات مضيفة فى مطعم وجبات سريعة تنفذ الطلبات فى انتظار البقشيش.. وآمنت بأن عليها أن تكون امرأة انتحارية تخطف الطائرات من دولة المغفلين لتهبط بها فى دولة المستنيرين.

حشوتها بالأعاصير.. ومسامير القلق.. وسكاكين الأسئلة.. وفرضت عليها كل ما فى رصيدى من علامات استفهام.

وأعترف بأننى تعلمت هذه القواعد من رجل شهدت له بموهبة التعبير.. وبراعة التفكير.. ورغبة التغيير.. هو محمد حسنين هيكل.. تصورت أنه مؤمن بها.. مُصرا عليها.. مستعدا لتنفيذ أحكامها.. لكننى عند أول اختبار وجدت أوهاما تتراقص أمامى.. وأشباحا تسخر منى.. وحقائق توقظنى من غفلتى وغفوتى.

كنت قد صدقته عندما كتب بخط يده عن أهمية السؤال فى حياة المجتمعات طلبا لمعرفة.. أو كشفا لحقيقة.. أو تفتيشا عن مستقبل أفضل.. فرُحت أسأله: لماذا يصر على صداقة العائلة المالكة فى قطر رغم أنه يعرف أكثر من غيره حجم المؤامرات التى تدبرها وتمولها ضد بلاده؟. كيف هاجم نظام مبارك بأشد ما يمكن بينما ولداه أحمد وحسن استفادا منه بأكثر مما نتخيل فى علاقة بيزنس مباشرة مع علاء وجمال مبارك؟. أليست هناك مسافة هائلة بين الصحافة والصرافة؟. كيف جمعت عائلته بين أب ينتقد السلطة وأبناء جمعوا من ورائها الثروة؟

وامتدت الأسئلة إلى مناطق شائكة أخرى.. حماسه لحزب الله رغم تحريض قائده حسن نصر الله على الجيش المصرى.. قبوله لشكر وتقدير وإعجاب من بشار الأسد متناسيا حجم الخراب الذى سببه لبلاده.. سوريا.. وحجم الضحايا الذين سقطوا من شعبه بكل ما فيه من فئات وطوائف.

وتوقفت الأسئلة طويلا عند سر اقترابه المعلن من جماعة الإخوان.. وانتقاله من موقف إلى موقف مضاد.. من دعم الدكتور محمد مرسى إلى تقديم النصائح للمشير عبد الفتاح السيسى.. مكررا نفس القفزة بين جمال عبد الناصر وأنور السادات.. متربصا بمبارك لأنه لم يتجاوز فى علاقته به ما تفرضه الاعتبارات الإنسانية.. سؤال من الرئيس الأسبق عن مرضه.. وعرض بتحمل تكاليف العلاج.. رفضه هيكل شاكرا.. مقدرا.

فرشت أمامه علنا بعض ما فى قلمى من أسئلة وصفتها بأنها حائرة.. وكما توقعت.. لم يجب عليها.. معتمدا على «آفة النسيان».. حسب تشخيص نجيب محفوظ.. معتمدا على أننا «أقدم حضارة وأضعف ذاكرة».. حسب تشخيص صلاح حافظ.. مرتكنا على أننا نهوى صناعة الأصنام من شواهد قبور الرخام.. وأننا شعب عاطفى يسهل التأثير على مشاعره.. ونغير تصوره بما يخالف الحقيقة.. على طريقة «اكذب اكذب حتى يصدق الناس أنك على حق».

والأمثلة حاضرة.. شاخصة.. الفاجر يصبح زاهدا.. المأجور يتقلد الأوسمة الوطنية.. اللص يوصف برجل أعمال.. ومن لم ينجب تلميذا واحدا نمنحه صفة المعلم.. ما أروع الخرافات عندنا.

إن الدعوة لذكر محاسن الموتى ثواب إلا لو كان الميت شخصية أفسدت فى الأرض.. والدعوة لتجنب نقد كبار السن لا تجوز على من يرتكب أخطاء بالقول أو الفعل ندفع ثمنها.. وينجو من عقابها.

ويعرف هيكل أكثر من غيره أن ما كتبت عنه وجد صدى فى أوساط مختلفة.. صفقت.. وشجعت.. وتحمست.. ودعمت بمستندات وملاحظات وحكايات.. وهذا متوقع.. كما تسبب ما كتبت فى جفاء بعض أنصاره إلى حد القطيعة والخصام.. وهذا متوقع أيضا.

لكن غير المتوقع وغير المصدق أن يصل إلى أسماعى أن هيكل رفع شكواه إلى جهات عليا.. عبر وسطاء.. لم يفصح عنها مباشرة.. حفاظا على هيبته.. فى إيحاء منه بأننى جزء من مؤامرة عليه دبرتها أجهزة خفية.. دون أن أسمع سببا وجيها للمؤامرة.. أو أجد مبررا مقنعا لتدبيرها وتنفيذها.

لكننى اعتبرت ما سمعت شائعة ما.. تنال من الرجل أكثر مما تثبت قوة اتصالاته.. كما أن السلطة فى مصر تغيرت.. ولم يعد فى مقدورها الاستجابة لتحريض كاتب على كاتب.. خاصة إذا كان الاثنان وصلا إلى سن التطهر.. حيث تبدأ تصفية الحسابات مع الدنيا.. قبل المثول أمام محكمة الآخرة.

فى سن التطهر تصبح الوطنية نوعا من الصوفية.. الصوفى يعبد الله دون خوف من عقاب.. ودون طمع فى ثواب.. والوطنى يذوب فى تراب بلاده دون خوف من سلطة باطشة.. ودون طمع فى مكانة مغرية.

ويزداد حب الوطن اشتعالا فى القلب عندما نلقى بأنفسنا فى النار لإنقاذه من سرطان يهدده.. أو حوت يبتلعه.. أو تنظيم يسحقه.. وهو ما حدث فى 30 يونيو.. الثورة التى اكتفى هيكل بمشاهدة تظاهراتها من شرفة مكتبه المطل على النيل وهو فى كامل أناقته.

وما أن نخرج حاملين الوطن على ظهورنا بعد انتشاله من الغرق حتى نجد أنفسنا فى حالة من التربص بكل من يقترب منه بسوء.. ولو وقع السوء بحسن نية.. فالطريق إلى جهنم مفروش بنيات طيبة.

ساعتها.. لا نقبل من أحد أن يتكلم بما لا نفهم.. وأن يتصرف بما لا نستوعب.. وأن يتردد بما لا يحسم.

ساعتها سنراه بمنظور آخر.. مهما كان تاريخه.. ونفوذه.. وسلطانه.. وتأثيره.

وذكرنى اتهامى بالمؤامرة على هيكل بما سبق أن سمعت نقلا عن مبارك باشتراكى فى مؤامرة عليه مع هيكل.. لقد تغيرت الظروف.. لكنى.. بقيت بما أكتب متآمرا.

■ ■ ■

إن الرأى حالة متحركة.. وليس مسمارا مدقوقا فى حائط.. أو تمثالا لا يبرح مكانه.. لكن.. تبقى الحقيقة سيدة كل عصر.. وتاج كل اجتهاد.

والحقيقة أن كثيرا من روايات هيكل المنشورة والمذاعة تفتقد الدقة.. وتتحامل على ما حدث.. وعند تأملها بحيدة سنجدها تكذب نفسها بنفسها.. وكأنها خيال روائى أكثر منها شهادة مراقب.

وقد منعت نفسى من التعرض لكثير من الأمثلة التاريخية القديمة التى وقعت من قبل خشية أن نجد أنفسنا فى صفوف حملات لم نقبلها.. استهدفته فى زمان مبارك.. لكن.. أما وقد عاد الرجل إلى نفوذه وقوته وتأثيره وسطانه فإن من حقنا تفنيد ما يقول ويكتب دون اتهام بتدبير من سلطة.. أو منافسة على شهرة.. فهو نفسه أصبح جزءا من السلطة.. كما أن شهرته يصعب انتقاصها.. ولا نحتاجها.

والشاهد أن كتابه الأخير «مبارك وزمانه.. من المنصة إلى الميدان» كتاب خفيف جدا.. متواضع جدا.. لا يليق به.. وليس فيه من هيكل القديم شىء.. لا من ذهنه.. ولا من توثيقه.. وفى كثير من حكاياته يكاد يكون ثرثرة متكررة لما قاله الناس فى الشوارع وعلى المقاهى وهم يستهلكون وقتهم فى التدخين وشرب الشاى.. ويحمل من الشائعات أكثر مما يحمل من مستندات.. وإذا لم يوافقنى هيكل الرأى أرجو أن يسامحنى عليه.

■ ■ ■

يروى هيكل فى الكتاب عن صدفة جمعت بينه وبين رجل الأعمال حسين سالم.. «صديق مبارك بالالتصاق».. حسب تعبير هيكل.. التقيا على متن طائرة «سويس أير» المتجهة إلى جنيف ذات يوم من عام 1988.. كان بصحبة حسين سالم زوجته الثانية الشابة.. «زوجة السفر والسياحة».. حسب وصف حسين سالم.

ما لم يقله هيكل أن حسين سالم فى حياته أكثر من زوجة.. نظيمة أم ابنه خالد وابنته ماجدة.. وهالة وكانت سكرتيرته.. وأغلب الظن أنها هى التى كانت معه فى تلك الرحلة.. وقد عاشت معه ثمانى سنوات ثم تنقبت.. ولوسى وهى مصرية من جذور أرمنية.. وأخيرا.. هيرمينا.. وهى مغنية رومانية.. عملت فى ملهى فندق «موفنبيك».. على خليج نعمة فى شرم الشيخ عام 1997 وتزوجها عام 2002 وشيد لها مركزا تجاريا فى بوخارست تكلف نحو مائتى مليون دولار.

استأذن حسين سالم زوجة هيكل السيدة هدايت فى أن يجلس بجوار زوجها مستفيدا من الصدفة التى جمعتهما.. ولأنها تعودت على مثل هذا الطلب استجابت دون تردد.. وراح هيكل معظم ساعات الرحلة يسأل حسين سالم عن مبارك وزوجته.. لكن.. الأسئلة فى معظمها دارت ولفت حول أمور شخصية «مثيرة».. بعيدا عن الخوض فى بحار عميقة.. وصلت إليها علاقة حسين سالم بمبارك.. مثل مشاركة الإسرائيليين فى مشروع «ميدور».. معمل التكرير الضخم الذى كان مقدمة لتصدير الغاز إلى إسرائيل.. بجانب شرم الشيخ التى أصبح عمدتها.. وسمى أهم شوارعها فى منطقة خليج نعمة باسمه.. وكانت المدينة المفضلة لمبارك.. يضاف إلى ذلك حقيقة علاقته بمدير المخابرات وقتها عمر سليمان.

اكتفى هيكل باتهامه بأنه كان يورد ملابس مبارك بترتيب مع بيت أزياء الرجال الإيطالى «بريونى».

ورد الرجل: إن تعامل مبارك مع «بريونى» جاء باقتراح من الشيخ زايد خلال زيارة إلى أبو ظبى وانتهى بتفصيل ثلاثين قطعة للرئيس الأسبق.

وبعيدا عن تلك الرواية فإن «بريوني» على ما يبدو هو مثار جذب لغالبية الشخصيات الحاكمة فى مصر.. فى عصور سياسية مختلفة.

وانتقل هيكل إلى الاتهام الثانى بأن حسين سالم كان يختار هدايا أمراء الخليج إلى قرينة مبارك.

واعترف الرجل بأن أمراء الخليج طلبوا منه أن يرى الهدايا قبل إرسالها حتى لا تتكرر «الأطقم».

وقبل أن تهبط الطائرة وجه حسين سالم دعوة عشاء إلى هيكل.. وحسب إضافة هيكل فإنه وجد على مائدة العشاء زجاجة نبيذ مفتوحة.. «لاحظت أنها شاتولارتور 1949 لا يقل ثمنها عن عشرة آلاف دولار وعلقت عابرا عن نوع زجاجة النبيذ.. ثم.. أضفت: إنها خسارة لأنى لا أشرب وللإنصاف فقد رد (حسين سالم) قائلا: ولا أنا ايضا».

توقفت عند هذا الجزء من الرواية.. إذا كان هيكل لا يشرب فلماذا اهتم باستعراض خبرته فى مجال النبيذ.. فقد عرف من الوهلة الأولى أن زجاجة النبيذ «شاتولارتور 1949».. ونجح دون تردد فى تحديد ثمنها بسهولة.. «عشرة آلاف دولار».. والمعروف فى عالم الخمور أن أصعب خبرة.. خبرة النبيذ.. لا يصل إليها أحد إلا بعد طول تجريب واجتهاد.

ربما يكون الرد.. إن هيكل مهتم بالأشياء المترفة.. ويجيد الحديث عنها.. فعندما التقى مبارك واكتشف أنه يدخن السيجار لم يعجبه النوع الذى قدمه إليه الرئيس (روميو وجوليت).. واستأذن فى أن يأتوا إليهما بما ترك من سيجار أفضل فى سيارته.. مضيفا: «إن الشركة التى تنتج سيجار «روميو وجوليت» تنتج أكثر من 75 نوعا بعلامتها وكل نوع مختلف عن الآخر».

لكنه.. هنا يعترف بتدخين السيجار.. وهناك ينفى أنه يشرب الخمر.. دون أن يطلب أحد منه ذلك.. أو يجبره عليه.. لا أحد اتهمه بالشرب حتى يدافع عن نفسه.. وبدا أنه يتعسف فى إقحام القصة دون مبرر ليقرب منه على ما يبدو التيارات الإسلامية المحافظة

التى صعد نجمها فى تلك الفترة.. مزيلا ما قد يقف حائلا بينه وبينها من أمور مختلفة ولو كانت شخصية.. ليس من حق أحد أن يحاسبه عليها.

وعندما تطرق هيكل إلى الفضيحة الأكثر دويا التى نسبت إلى حسين سالم لم يأت بجديد.. والفضيحة معروفة باسم «أتسكو».. اسم الشركة التى تكونت فى الولايات المتحدة من حسين سالم ومنير ثابت ومحمد عبد الحليم أبو غزالة لنقل السلاح الأمريكى الممول من أموال المعونة الأمريكية إلى مصر.

وكان السؤال المهم فى رأيى الذى لم يطرحه هيكل: لماذا سكت الأمريكيون على هذه الشركة قبل فضحها؟

والإجابة: إن الأمريكيين فى البداية تركوا لوكالة مخابراتهم المركزية نصيبا من أرباح الشركة لتمويل عمليات لها لا يسمح القانون الأمريكى بتمويلها فى أمريكا اللاتينية.. ضد منظمات يسارية.. وما أن انتهت تلك المهمة حتى استداروا للشركة واكتشفوا عدم مشروعيتها.. ولم يستطع النظام المصرى أن يكشف عن هذه الحقيقة وتقبل الاتهامات دون دفاع معلن.

ولم يجد هيكل من حسين سالم تفسيرا مناسبا لما حدث بعد أن كشفت الصحف الأمريكية الفضيحة سوى أن الأمريكيين أرادوا ابتزاز السياسة المصرية والسيطرة على مسئولين مصريين.

وأضاف هيكل: «وانتقلت إلى بيع الغاز إلى إسرائيل ولم تكن الاتفاقات الكبرى قد عقدت بعد ولا خط الأنابيب قد امتد مساره عبر سيناء».

ونسب هيكل لحسين سالم أنه قال: «نعم عقدت صفقات غاز لإسرائيل».. وفيما بعد نفى حسين سالم أنه اعترف بذلك.. وكانت حجته أن الحوار بينهما جرى فى عام 1988.. وفى ذلك التاريخ لم يكن موضوع بيع الغاز إلى إسرائيل قيد بحث.. فكيف عقد الرجل صفقات غاز مع إسرائيل؟. وكيف نقلت الشحنات إليها؟

وينهى هيكل فصل حسين سالم فى الكتاب برواية شاعت وقتها دون أن يتوقف الصحفى المخضرم لفحصها.. أن حسين سالم بعد أيام من ثورة يناير أقلع بطائرته

الخاصة من شرم الشيخ ومعه مجموعة من صناديق تحتوى على 450 مليون يورو نقدا وجديدة ولا تزال مغلفة بنفس التغليف الذى صرفت به من البنك المركزى الأوروبى.

وحطت الطائرة فى مطار أبو ظبى ولاحظ مأمور المطار هذه الصناديق وأدرك على الفور أنها أوراق نقد وأخطر بالأمر سلطات مسئولة فى أبو ظبى وصدر قرار بالاتصال بالقاهرة لسؤالها فى الموضوع.

كان مبارك شبه معتزل فى شرم الشيخ لكنه لم يكن قد تخلى عن السلطة بعد.. وجرى الاتصال بنائبه السيد عمر سليمان وأشار النائب بالإفراج عن الرجل.. وعدم إثارة فضيحة فى الوقت الحاضر عن الموضوع لأن الظرف حرج.

وسأل بعض المسئولين فى الإمارات شخصيات مصرية عما يكون التصرف به حيال الموضوع.. وكان من بينهم نائب رئيس الوزراء السابق وزير التجارة والصناعة رشيد محمد رشيد.. وكانت نصيحته وغيره إيداع المبلغ مؤقتا فى البنك المركزى للإمارات والاتصال بالسلطات المصرية للبحث عن الأصل فى هذا الموضوع وكيفية التصرف حياله؟

ورغم أن هيكل استشهد برشيد محمد رشيد فإنه عندما سأله فيما بعد وقت أن التقاه فى عاصمة أوروبية عن صحة الرواية استأذن الرجل حسب اعتراف هيكل نفسه بأن يبقيه خارج هذا الموضوع.. فالشاهد الذى استند إليه هيكل لم يدل بشهادته.. لم يتكلم.

ولو كان الاتصال قد جرى بين مسئولين إماراتيين ونائب الرئيس وهو سلطة عليا فلماذا جرى البحث عن مسئولين أقل لاستشارتهم فى مصير تلك الأموال؟

سألت عمر سليمان قبل رحيله عن الواقعة فنفاها قائلا: «إن حسين سالم كان فى الأقصر يشرف على توسعات فندق موفنبيك الذى يملكه فى جزيرة التمساح عندما قرر السفر خارج مصر.. وفور ركوبه الطائرة اتصل بعائلته فى شرم الشيخ كى تذهب إلى المطار لتلحق به على متن الطائرة.. والطائرة من طراز فالكون 2000 لا تسع لأكثر من 13 راكبا ولا تحمل أكثر من سبع حقائب.. وقد طلب قائدها الإذن بالسفر من سلطات المطار.. فرجعت تلك السلطات إلى رئاسة الجمهورية للحصول على موافقتها قبل منح الإذن.. وبعد نصف ساعة تلقت سلطات المطار الموافقة من مدير مكتب مبارك جمال عبد العزيز».

وبسبب ضيق الطائرة فإن الزوج الثالث لماجدة ابنة حسين سالم لم يجد له مكانا بين من أقلعوا عليها.. كما أن مثل هذه الطائرات مهما كان حجمها ليست مصممة لحمل صناديق بضائع سواء كانت نقودا أو بصلا.. وهيكل يعرف ذلك جيدا.. فكثيرا ما ركب طائرات خاصة.. كما أن ابنه أحمد يمتلك واحدة منها.

وعرفت من مسئول بنكي معروف: أن حمل هذا المبلغ مستحيل في طائرة صغيرة.. فوزن تلك الملايين لن يقل عن ثلاثة أطنان.. بل.. ربما تزيد إذا ما تذكرنا عملية شهيرة جرى فيها تهريب 210 ملايين دولار من المكسيك.. ونشر وقتها أن وزن الشحنة نحو أربعة أطنان.

وفيما بعد اتهم حسين سالم بعد أن هبط إسبانيا التى يحمل جنسيتها فى قضية غسيل أموال.. فقد وجد فى حسابه بأحد البنوك فى مدريد 27 مليون يورو.. وكشفت القضية لحظة أن ذهب ابنه خالد إلى البنك يسأل عن المال.. وقبض على حسين سالم وخالد وماجدة.. ولم تجد السلطات الإسبانية فى بيته سوى 127 ألف يورو لم تكف لسداد الكفالة المطلوبة (10 ملايين يورو) وبعد ثلاثة شهور فى السجن أفرج عن ماجدة وخالد بكفالة مليون يورو لكل منهما.

وأرسلت السلطات القضائية المصرية المستشار أحمد سعيد (هيئة قضايا الدولة) إلى أسبانيا لتعقب أموال حسين سالم.. ولكن.. بعد ثلاثة شهور لم يتوصل الرجل هو وزميل ذهب معه إلى شيء.

لا أدافع بالقطع عن حسين سالم.. فقد كنت الوحيد فى الصحافة المصرية الذى نشر عقد تصدير الغاز إلى إسرائيل الذى تولته شركته (شركة غاز شرق المتوسط).. كما نشرت قضية استيلائه على جزيرة التمساح فى الأقصر.

وطلب عمر سليمان أن يرانى.. وفى جلسة مسائية فى مكتبه قال لى: إن حسين سالم رجل أعمال «وطنى» مثله مثل غيره من رجال الأعمال لا يزيد ربحه فى كل عملية عن 15 %.

وأضاف: إن تصدير الغاز إلى إسرائيل جزء من خطة أكبر لتأمين حدود مصر.. فعندما تعتمد إسرائيل على الغاز المصرى فإننا نضمن سيطرة ما عليها.. تجنبنا كثيرا من المتاعب على الخطوط الفاصلة بيننا وبينها.

وعندما قابلت حسين سالم فى منتدى ديفوس الذى عقد فى شرم الشيخ رفضت أن يقدم لى أى تسهيلات فى الإقامة أو التنقلات.. كما رفضت أكثر من دعوة لتناول الطعام معه.

تكلمت عنه فى عز قوته وسلطانه واتصالاته.. وفضحته حين سكت الجميع بمن فيهم هيكل.. وكشفت ما كان يفعل فى وقت كان هناك من يتناول معه طعام العشاء فى أغلى فنادق جنيف.. وتفتح له زجاجة نبيذ بعشرة آلاف جنيه.. بل أكثر من ذلك كان الناصريون الذين أعتز بهم ينشرون له إعلانات تهنئة فى ذكرى ثورة يوليو.

إنها البطولات المؤجلة.. حيث يكون الحديث فى وقت يكون فيه الخصم عاجزا عن الرد.. بما يشبه وصول سيارة إسعاف بعد وفاة المريض.. أو فتح خراطيم سيارة إطفاء حريق بعد أن تكون النيران قد التهمت كل شىء.. كما أن لا أحد يأخذ ثواب الحج لو ذهب إلى الأراضى المقدسة بعد الموعد الشرعى.

ومن جانبه دافع حسين سالم عن نفسه قائلا: «إنه لو كان يعلم أن هيكل على متن الطائرة السويسرية لأخذ غيرها».

وأضاف: «إن هيكل يكره مبارك ونظر إليه على أنه فلاح بسيط سقط من السماء على عرش مصر».

واستطرد: «ومن جانبه شعر هيكل بالخطر من مبارك بالتهديد طوال الوقت حتى لا يفكر فى الكتابة عنه أو عن عائلته.. ونجح مبارك فى ذلك طيلة ثلاثين عاما.. ويرجع خوف هيكل من مبارك إلى علمه أن مبارك قد يصل فى غضبه إلى حد الهمجية».

وتوقع حسين سالم أن يكتب هيكل عنه «أقوى من ذلك».. «ولكننى فوجئت به يتحدث عن النبيذ والأزياء».. «مما يعنى أنه ليس لديه معلومات ثقيلة عنى».

لقد نشر هيكل كثيرا من الشائعات متخليا عن طريقته المدققة فى الفحص والتوثيق.. ومنح تلك الشائعات حصانة لا تستحقها.. ولو وضع عليها اسمه وخاتمه وتوقيعه .

■ ■ ■

فى يوم 23 مايو عام 2011 جلس هيكل أمام المستشار خالد سليم فى جهاز الكسب غير المشروع للتحقيق معه فيما نشر لبيب السباعى على لسانه فى الأهرام.. «أن ثروة مبارك تتراوح ما بين 9 و 11 مليار دولار».. ولم يستطع هيكل أن يثبت ما قال.. وراح يتحدث عن تقارير ومصادر خارجية دون أن يقدم نسخة منها.. وكاد المحقق أن يأمر بحبسه بتهمة نشر معلومات كاذبة لولا تدخل جهات عليا من القوات المسلحة.

إن تلك الجهات وعلى رأسها المشير حسين طنطاوى خشيت مما وصفته بـ «انتقام هيكل».. متحسبة مما فعل بالسادات فى كتاب «خريف الغضب».. حيث نشر عرضه.. وأباح سيرته.. وخلط بين العام والخاص فى حياته.

وما دعا طنطاوى للحذر من هيكل وصف هيكل لشرم الشيخ حين ذهب مبارك للإقامة فيها بعد تنحيه بالبؤرة، مما تسبب فى نقل حالة الغضب إليها.

ومما يسجله التحقيق الذى لم يزد عن ورقتين أن المستشار خالد سليم قال له باستنكار لا يخلو من الدهشة: «بسمعتك وكيانك واسمك كيف تستقى معلومات من وكالات أنباء وتذكرها على مسئوليتك فى تلك الظروف الصعبة؟».. فألقى هيكل اللوم بالمسئولية على «الأهرام» التى اتهمها بتضخيم تصريحاته والعبث بها.

وحسب معلوماتى فإن «الأهرام» عرضت الحوار على هيكل ليراجعه ويقره قبل النشر.. فهو يخشى من التعبير عن ما يقول خطأ.. خاصة أن التداخلات والتشابكات فى أحاديثه يصعب صياغتها أحيانا.. وهذه مشكلة أصحاب الثقافات العريضة المتنوعة ومنهم هيكل.. تأخذه الدروب الفرعية أحيانا بعيدا عن نهر الحديث.

وقد سبق أن حقق مع هيكل فى نفس المكان أيام السادات وقت أن كان المكان يشغله المدعى العام الاشتراكى.. وهو منصب اخترعه السادات لينال من خصومه سياسيا إذا ما فشل فى عقابهم جنائيا.. وكانت القضية الملحة التى دفعته إلى ذلك الاختراع.. قضية التخلص من رجال جمال عبد الناصر فى 15 مايو 1971.. فبعد أن برأتهم النيابة العامة من تهمة التآمر وقلب نظام الحكم لم يجد سوى المدعى الاشتراكى ليلقى بهم فى السجن.

وسكت هيكل وقت أن كان مقربا من السادات عن ذلك الكيان الغريب الذى أقحم دون سند إلى الهيئات القضائية.. لكنه.. فيما بعد.. وجد نفسه متهما أمامه اتهامات سياسية.. تفتش فى ضمير كلماته.. ومقاصد أفكاره.. وكأنه فى إحدى محاكم عصور الظلام الأوروبية.. واستمر التحقيق ثلاثة شهور.. يونيو ويوليو وأغسطس عام 1978.. وحرم هيكل من البرنامج الصيفى الذى تعود أن يقضيه بين مدن أوروبية وشواطئ مصرية.

■ ■ ■

فى الأيام التى تلت ثورة يناير ضاعف هيكل من عدد الجسور الممدودة بينه وبين تنظيم الإخوان.. وتعددت لقاءاته مع قيادات التنظيم فى برقاش.. وتناول معهم الطعام.. وشرب معهم الشاى والقهوة والقرفة والجنزبيل وعصير البرتقال.. متجنبا بطبيعة الحال الحديث عن خبرته فى النبيذ.. وربما تكلم عن خبرته فى الشيح البابونى.

كان عمر سليمان قد التقى قيادات من الإخوان فى 3 فبراير قبل رحيل مبارك عن الحكم بثمانية أيام.. واتفق الطرفان معا على انسحاب حشود الجماعة من الميادين مقابل القبول بتشكيل حزب سياسى للجماعة.

لكن.. هيكل انزعج.. واستدعى رموزا إخوانية قائلا: «لو انسحبتم من الميادين فإن مبارك سيشم نفسه ويعلق ألفا منكم فى نفس الميادين».

تحالف هيكل مع الجماعة بوضوح ودون تردد.. متصورا أنهم أقرب إليه من مبارك والمؤسسة العسكرية وباقى التيارات السياسية المدنية التى ينتسب إليها ويعبر عنها.. أحيانا.

كشف عن هذه الواقعة القيادى الإخوانى السابق خالد الزعفرانى.. كان الرجل ضيفا على برنامجى «آخر النهار» متحدثا فى مستقبل الجماعة بعد 30 يونيو.. وفى الفاصل الإعلانى قال أمام ضيفىّ الآخرين أحمد بهاء الدين شعبان وناصر عبد الحميد (وهما من قيادات ثورة يناير) ما قال.. وعندما اتصلت به فيما بعد طالبا المزيد من التفاصيل لم يتردد فى الاستجابة.

قال: إنه كان جالسا وسط قيادات إخوانية فى الإسكندرية أبلغهم مدحت الحداد (أمين حزب الحرية والعدالة فى الإسكندرية وشقيق عصام وهشام الحداد ويمتلك شركة

لتنظيم المعارض) فى بيته بحى جناكليس بنصيحة هيكل «المخلصة».. وكان بين الحضور عبد اللطيف آدم.. وهو ينتمى إلى تنظيم سيد قطب.. التنظيم الذى سعى إلى تفجير مصر وتخريبها عام 1965.. وقت أن كان هيكل أبرز مسئولى نظامها.

وحسب نفس الشهادة فإن هيكل كان متوترا وضاغطا إلى حد أن شعر من سمعوه بأنه كان أشد منهم عنفا فى إزاحة مبارك.. وكأن بينه وبين مبارك ثأرا شخصيا.. يبتعد كثيرا عن الخلاف السياسى المعلن من جانب هيكل.

لقد ارتكب مبارك جرائم سياسية كسرت ظهر مصر طوال سنوات حكمه.. وبقيت عائقا ومانعا يسد الطريق لتجاوز أزمانها.. لعل أبرزها سحق الكفاءات والإجهاز عليها.. تدمير الحياة الحزبية تاركا سرطان الإخوان يستشرى فى جسدها.. منشغلا بأغنياء نهبوا ثروات الفقراء.. فكانوا رصيدا للعنف والإرهاب فيما بعد.

ولكنه.. ظل محافظا على مدنية الدولة ولو تركها فى حالة يرثى لها.. وإن كان من الممكن بعد كثير من الإجراءات استرداد عافيتها.. أما الإخوان فقد خططوا لتغيير طبيعة الدولة.. والعودة بها إلى عصور الظلام.. بجانب مخططات خارجية أخرى لم تعد خافية على أحد.

ولو كان من الصعب على عاقل يستوعب طبيعة مصر الحضارية أن يقبل بالخراب الذى ألحقه مبارك بالدولة المدنية فإن الأشد صعوبة أن يقبل هيكل بالدولة الدينية التى سعى إليها الإخوان.

لكن.. هيكل.. على ما يبدو.. لم يكن يهمه سوى هيكل.. أن يصفى حساباته مع مبارك.. ويزيحه.. وينتصر عليه.. ولو.. تحالف مع الإخوان.. وساندهم.. وأرشدهم.. ونصحهم.. ووقف بكل خبراته إلى جانبهم.. هل يمكن تصور ذلك؟. هل يمكن قبوله؟. هل يمكن أن يكون ثمن خصومة بين صحفى وحاكم تدمير أمة.. وإلغاء دولة.. ونسف جسور الاتصال بالعصر؟

لقد واصل هيكل دعمه المفتوح للجماعة.. واستقبل مرشحها الرئاسى محمد مرسى.. وظل على اتصال به.. مما يبرر ذهابه إليه بعد فوزه فى قصر الاتحادية.. بل

إن هيكل بعد سقوط حكم مرسى فى 3 يوليو استقبل الدكتور محمد على بشر الذى تولى وزارة التنمية المحلية فى آخر حكومة إخوانية، والدكتور عمرو دراج وزير التعاون الدولى فى نفس الحكومة، ليستمع منهما إلى مبادرة الجماعة للتوافق مع السلطة الجديدة التى تحكم مصر.. وأسعد هيكل الإعلان عنها.

■ ■ ■

والنصيحة الغالية التى يجب أن يوجهها إلى هيكل المقربون منه والمؤمنون به والمقلدون له أن يكف عن الكلام.. فكلما تكلم كشف نفسه بنفسه.. وأشار دون ضغط من أحد إلى تناقضاته.. وتقلباته.. وانقلاباته.. خاصة أن ما تبقى من الزمن لن يمنحه فرصة جديدة للتراجع والتصحيح.. كما حدث كثيرا من قبل.

فى يوم الجمعة 3 يناير تحدث هيكل تلفزيونيا إلى لميس الحديدى عن استخدام الولايات المتحدة للإسلام فى محاربة الشيوعية خلال سنوات الحرب الباردة.. أشار هيكل إلى تقرير قدمه وزير الخارجية الأمريكية الأسبق جون فوستر دالاس إلى رئيسه فى البيت الأبيض دويت إيزنهاور محذرا من غارتين قادمتين على الرأسمالية.. غارة إسلامية.. وغارة شيوعية.. وكان الحل المناسب ضربهما ببعضهما البعض.

ويقفز هيكل من دالاس إلى السادات.. ويقول: بعد شهرين أو ثلاثة من رئاسته راح السادات يحكى عن خطته وخطوطه للمستقبل فى اجتماع جرى فى استراحة القناطر حضرته زوجته جيهان.

واستطرد هيكل:

إن السادات قال فى ذلك الاجتماع: «إن الإسلام ليس حليفا للشيوعية وليس عدوا بالضرورة لأمريكا.. «سياستى شىء آخر فأنا أرى أن لا حاجة إلى الاتحاد السوفيتى الآن ونهائيا وأنه لا يمكن الاعتماد عليه فى الحرب (ضد إسرائيل) لكن أنا أمامى أمريكا ستخرج فى الأغلب منتصرة فى الحرب الباردة.. وستقود العالم فى الأغلب.. وأريد أن يكون لنا علاقات معها».

وتساءل السادات: لماذا اكتسبت إسرائيل أمريكا فى صفها بهذا الشكل؟ وأجاب: «لأن أمريكا بحاجة إلى صديق يضبط إيقاع المنطقة فلجأت إلى إسرائيل».

وأضاف: «جمال عبد الناصر ناكف الأمريكان زيادة عن اللزوم ونحن لو قدمنا من حسن النية ما يجعلنا نحل محل إسرائيل تجاه أمريكا.. سنجعل أمريكا فى غير حاجة إلى إسرائيل».

«واستطرد: وأريد أن أحل محل السعودية فى العالم العربى.. نحن نستطيع أن نضمن البترول فى المنطقة بعلاقاتنا مع العالم العربى شريطة ألا تكون السعودية هى الحامية للدين».

وواصل هيكل حديثه: إن استخدام السادات للدين كان ضمن أشياء أخرى كثيرة ومهمة.. وكان رأيه أنه لا بد من عمل حلف أو تهدئة مع الإخوان المسلمين.. وهنا ساعده عثمان أحمد عثمان.. خصوصًا أنه فى «المقاولون العرب» كان وكيل (الجماعة) الدائم عبد المجيد حلمى.. وكان وقتها هو المرشد الخفى للجماعة فى فترات المحنة.

وأضاف: وعقد (السادات) وقتها اجتماعا قال فيه: «نريد صلحا مع الإخوان المسلمين والعداء السابق (معها) لا داعى له».

ويمكن القول إن السادات توصل إلى نظرية دالاس رغم أنه لم يطلع عليها.. استخدام الإسلام لمواجهة الشيوعية والتنظيمات اليسارية.. بما فيها العناصر الناصرية الباقية لديه (لدى السادات).

وما أثار الدهشة أن السادات من باب الخداع الذى اشتهر به لم يتردد فى وصف عبد الناصر بالأستاذ والمعلم.. مضيفا فى ذكرى أربعين وفاته: «إنه كان إلهاما لأمته وظل بعد رحيله إلهاما لها».

ووصل فى ذروة النفاق السياسى عندما قال: «وشأن القادة فى مراحل التطور الحاسم عبر مسار التاريخ لا تضيع مبادئهم بذهابهم ولكن تزداد قوة.. ولا تسقط أعلامهم برحيلهم ولكن تزداد علوا.. ولا ينفض الناس بعدهم وإنما يزدادون تضامنا واقترابا لأن إحساسهم بأهمية المبدأ يزداد بعد ابتعاد القائد الذى كان وجوده فى حد ذاته تجسيدا لهذا المبدأ».

وليس من الصعب تحسس كلمات هيكل فى خطاب السادات.. وليس من الصعب إدراك أن الكلمات التى كتبت ونطقت لم تكن نابعة من نفسيهما.. وإنما مجرد كلمات تموت لحظة ميلادها.

وبعيدا عن ذلك التناقض المؤلم.. نتوقف لوضع الحقائق فى سياقها المناسب لنصل إلى أخطر ما وقع فيه هيكل:

1 - إن السادات فكر فى التحالف مع الإخوان بعد شهرين أو ثلاثة شهور فقط من توليه السلطة.. أى فى شهر ديسمبر 1970 و يناير 1971.

2 - أنه قرر استخدامهم فى الحرب على الشيوعية والتنظيمات اليسارية بما فيها التنظيمات الناصرية.

3 - أنه قرر فى ذلك الوقت المبكر أن يتخلص من رجال عبد الناصر.. بل ويتخلص من كل ما يمت لسلفه بصلة.. يطرد السوفيت ويذهب إلى الأمريكان.. يضرب اليسار لحساب اليمين.. يتقرب من الأثرياء لدعم الفقراء.

4 - إن هيكل عرف بخطته.. وساهم فى تنفيذها.. بل وكان بطلها الأول.

لقد ظل هيكل يفخر بأنه «مهندس» 15 مايو 1971.. انقلاب السادات على رجال عبد الناصر.. والإطاحة بهم.. وسجنهم.. ووصفهم بمراكز القوى.. وكان هيكل فى صراع مع بعضهم فى سنوات حكم عبد الناصر الأخيرة.. مثل على صبرى الذى شعر هيكل أن بقاءه حرا يعنى القضاء عليه مباشرة.. فلم يتردد فى شن الحرب عليه دون أن يأخذ فى الاعتبار أن دعمه للسادات سينتهى بتدمير التجربة الناصرية.. لكن.. ذلك لا يهم.. فالمهم أن يبقى على القمة.. ولو كانت قمة فوق تلال الخراب.

وقد مهد هيكل للانقلاب بمقال نشره فى 6 نوفمبر 1970.. فى ذكرى أربعين عبد الناصر بعنوان «عبد الناصر ليس أسطورة».. كان بمثابة لكمة شديدة وجهت للزعيم الذى ساهم فى شهرته.. ولا نقول صناعته.. وكان تبرير هيكل: «خشيت من استغلال المستغلين لأغراضهم لقصة البطل فيه والرمز وعبرت عن مخاوفى من تحويل تراثه إلى كهنوت غيبى جامد بينما هو فى الحقيقة تجربة إنسانية زاخرة قابلة للحياة والنمو».

لكن.. ذلك التبرير جاء متأخرا فى مقدمة كتابه «لمصر لا لعبد الناصر» الذى نشره بعد أن أخرجه السادات من «الأهرام» وأبعده عنه.. فحاول أن ينسب إلى السادات مسئولية الهجوم على عبد الناصر مع أن هيكل هو الذى أطلق الرصاصة الأولى على عبد الناصر.

بل.. أكثر من ذلك شن هيكل حملة على رجال عبد الناصر يتهمهم فيها بالخرافة عندما نشر أنهم يستشيرون عبد الناصر عبر جلسات تحضير الأرواح.. تشكيكا فى قدراتهم.. ورجما لمواقفهم.. وعربونا للتفاهم مع السادات.

لقد كان هيكل يزهو بكونه أقرب رجل إلى عبد الناصر وأنه ساهم فى صياغة أفكاره وتوجهاته ومبادئه فى «فلسفة الثورة» و«الميثاق الوطنى» و«بيان 30 مارس» فلماذا قبل المشاركة فى الكفر بكل ما آمن به وانحاز إلى خصوم عبد الناصر وساهم فى ضرب تجربته؟

والأسوأ أنه لا يزال يبكى عليه.. فهل ينطبق عليه المثل القائل: «يقتل القتيل ويمشى فى جنازته»؟

إن شهادة هيكل عن مخططات السادات ضد الناصريين وتقريب الإخوان شهادة صادمة.. ولو جاءت متأخرة.. شهادة تؤكد مسئولية هيكل عن كل ما جرى فى مصر منذ مايو 1971 إلى يناير 2011.. فقد امتد عهد الردة أربعين سنة كاملة.

ما فائدة تأليف عشرات الكتب والمقالات وتضييع ملايين من الدقائق فى حوارات تتحدث عن وطنية عبد الناصر وسلامة تجربته وعبقرية استراتيجيته من كاتب شارك فى هدم ذلك كله؟

لو كان هيكل قد خرج من دائرة السلطة فور علمه بمخططات السادات لحصل على شهادة تبرئة من المشاركة فى أكبر جريمة تاريخية حاقت بمصر فى القرن العشرين.. لكنه.. لم يفعل.. بل أكثر منه أنه خاض المعركة مع السادات ناصحا.. مساندا.. مؤيدا.. مروجا.. متحمسا.. ولم ينقلب على السادات إلا بعد أن أبعده عن نعيم السلطة.. ومصادر القوة.

فى كتاباته حاسب هيكل الجميع على أخطائهم.. لكنه لم يتوقف دقيقة واحدة ليحاسب نفسه.. والمؤكد أن اعترافه الأخير يدينه تاريخيا وسياسيا.. فقد شارك عن علم ومعرفة فى تنفيذ كل ما خطط له السادات.. وما نعانى من تداعياته الآن.

كيف تتناقض أقوال كاتب مع أفعاله محدثا كل هذه الفجوة العميقة؟. هل دفاعه عن عبد الناصر نوع من التكفير عن ذنب المشاركة فيما ارتكب ضد عهده؟. ألم يكن من الأجدى ألا يشارك فى تلك الجريمة بدلا من البكاء على الأطلال فور أن تخلى السادات عنه بعد أن استنفد غرضه منه؟

لقد اخفقت «مجموعة مايو» فى التصدى لانقلاب السادات رغم كشفها نواياه.. لكنها.. لم تشارك فى نسف تجربة الزعيم الذى آمنت به.. قبلت بالسجن ولم تقبل بتفكيك الثورة.. لم تزرع فى رأس السادات أفكارا من عينة «تحييد أمريكا».. و«الحرب المحدودة».. و«صعوبة العبور».. تلك الأفكار التى روج لها هيكل ترجمة لمخطط السادات.

إن شهادة هيكل الأخيرة المسجلة بالصوت والصورة تلقى بظلال كثيفة من الشكوك حول الأدوار السياسية التى لعبها.. وتحدد بوضوح من الذى استفاد منها؟. وكيف انتهت بنا إلى المتاهات التى نعانى منها حاليا.

وتعليقا على هذا الجزء الفاضح فى مقالى المنشور عن هيكل أرسل الدكتور كمال خلف الطويل رسالة على بريدى الإلكترونى يعلق فيها بمعلومات أجهلها.. وبتحليلات أصدقها.

والدكتور الطويل طبيب أشعة عمل وعاش فى الولايات المتحدة.. سورى من أصل فلسطينى.. قومى عربى ناصرى.. «عضو المؤتمر القومى العربي».. مؤرخ.. يتمتع بذاكرة قوية.

قال فى رسالته الإكترونية: إنه أرسل إلى هيكل طالبا منه إيضاحا حول ما قال فى حديثه مع لميس الحديدى عن خطة السادات للخروج عن خط عبد الناصر.

ويضيف: «إن من مصلحة هيكل أن يرد ويوضح».. فهناك اعتقاد خاطئ أنه اختلف مع السادات فى خريف عام 1973.. وهو أمر غير منطقى.. فالنقاط التى ادعى أنها كانت سبب الخلاف كان هيكل شاهدا وباصما عليها منذ أن جاء السادات إلى الحكم.

فى ديسمبر الماضى وخلال زيارة هيكل الأخيرة لبيروت استضافه الصحفى اللبنانى المعروف طلال سلمان فى صالونه وكان الدكتور كمال خلف الطويل بين الحضور فقال هيكل عنه: «هو اللى بيصححلى وما أقدرش أجادله».

ويضيف الرجل فى رسالته: «لكن.. التاريخ الذى يحمله (هيكل) على ظهره لا يترك أمام المسكونين بالتاريخ إلا أن ينبشوه بأزاميل التحرى والتقصى.. بأمانة البحث وحدب الباحث».

وسأكتفى بهذا الجزء من الرسالة مؤجلا ما تبقى منها عند عرض موضوع آخر يتصل بهيكل سأتعرض له فيما بعد.

وحسب ما عرفت فإن هيكل فى جلسة صافية بينه وبين سامى شرف جرت على شاطئ بيته الصيفى فى قرية الرواد عام 1996 قال:

«آسف يا سامى ما تزعلش منى (يقصد ما فعل به وبباقى رجال عبد الناصر فى مايو 1971) لكن.. إذا التاريخ عاد من جديد.. سأقف نفس الموقف مرة أخرى».

ولم يسأله سامى شرف عن جدوى الأسف لو تكرر الموقف؟

وهناك من يعتقد بأن كراهية هيكل لرجال عبد الناصر ومساهمته فى التخلص منهم سببها ما يمكن تسميته بعقدة المخابرات.. إن سامى شرف وشعراوى جمعة ومحمد فائق خدموا جميعا فى المخابرات العامة.. بل إن بعضهم ساهم فى تأسيسها.. وكان هيكل يخشى أن يكون تحت مراقبتها.. لكن.. دون أن يفصح عن السبب.. تاركا لغيره هذه المهمة.

ويعترف هيكل بهذه العقدة.. فقد قال فى حواره التلفزيونى مع لميس الحديدى يوم الجمعة 27 ديسمبر 2013: «سأتحدث بصراحة: أنا خائف من أن وكالتنا (المخابراتية) المخصصة للعمل فى الخارج تحولت كلها للعمل فى الداخل».

وسبق أن نفى هيكل أن تكون المخابرات العامة قد نجحت فى عملية واحدة داخل إسرائيل.. مستكملا شعوره بالقلق من الجهاز.. وتطلب ذلك الرد عليه.. فخرج ضابط المخابرات السابق سامح سيف اليزل إلى شاشة التلفزيون ومعه كتاب إسرائيلى يثبت أن أهم ثلاثة عمليات نفذت ضد إسرائيل وفى قلبها قامت بها المخابرات المصرية.

■ ■ ■

إن هيكل ينجذب تلقائيا إلى قوة السلطة مهما كانت طبيعتها.. ملكية.. جمهورية.. إسلامية.. ناصرية.. ساداتية.. عسكرية.. إخوانية.. مدنية.. يذهب إليها عارضا خدماته ونصائحه ومواهبه فى صياغة ما تريد.. لا يهمه من فيها.. فكل عدو سابق هو بالمصلحة صديق لاحق.. وكل صديق حالى هو بانتفاء المصلحة عدو لاحق.

يتقرب هيكل من السلطة القائمة.. يصبح جزءا منها.. يستفيد من اندماجه فيها.. فإذا ما غربت أو أقصته انقلب عليها.. واستفاد من جديد من معارضتها.. حالة نادرة للبراجماتية الخالصة جعلته موجودا فى كل العصور.. قادرا على البقاء فى كل الأزمنة.

إن لا أحد سوى هيكل سكن بيت الحكم فى مصر أكثر من ستين سنة رغم تغير وكيل البيت.. الرئيس الذى يحكم ويدير باسم الشعب.

هيكل فى الحقيقة لا يعمل إلا لحساب هيكل.. دون تورط فى أيديولوجية.. أو انحياز لطريق بعينه.

ومنذ سنوات طوال أعلن استئذانه فى الانصراف.. لكنه.. لم ينصرف.. كل ما حدث أنه كف عن كتابة المقالات واكتفى بأحاديث الصحف والقنوات.

بل إنه تحايل على كتابة المقالات بكتابة الخطابات المفتوحة للصحف أو لمحرريها.. وهى مع التحايل نوع من المقالات.

إن الانصراف يعنى الاختفاء.. أو الغياب عن المشهد.. لكن.. المذهل أنه ظل حاضرا.. قائما.. وشاخصا.. بل وقابضا.

تحدث عن الانصراف.. لكنه فى الواقع أصبح أكثر حضورا.. فقد ترك مقالات الصحف المحدودة بقيود عدم الانتشار.. وتفرغ لأحاديث التلفزيون بكل ما فى تلك الوسيلة من شعبية واسعة بسبب الأمية.. كما أن كثيرًا من الصحف كانت تنشر فى اليوم التالى ما قال ليلتها على الشاشة.. فكسب جمهور الكلمة المطبوعة بعد أن شد انتباه الصورة المرئية.

وغالبا ما يبدو هيكل مترفعا عن الحديث.. بحجة أنه لا يريد شيئا.. فتاريخه وراءه.. وزهده أمامه.. لكن.. رغم ذلك لا يكف عن الحديث.. ويبرر ذلك بأنه مستعد أن يفيد بخبرته من يريدها.. فلن يبخل بها على أحد.

لقد أخذ الكثير دون أن يُشعر أحدًا بالطمع.. وظل على خشبة المسرح دون أن يوحى بأنه سعى إليها.

لقد قال بعد ثورة يناير: إنه لم يكن يريد أن يفتح فمه ويتكلم.. مضيفا: لقد «قلت ما فيه الكفاية».. لكنه.. استطرد فاتحا الباب مرة أخرى: «أو هكذا أعتقد».

وأضاف: «ولم أكن أريد لأحد من جيلى وربما جيل آخر بعدنا أن يفتح فمه هو الآخر وأن يتكلم فقد قالوا ما فيه الكفاية وزيادة.. كان من واجبنا جميعا أن نسكت وأن نتابع حوار التاريخ الجارى الآن فى مصر وهو حوار فى واقع الأمر بين طرفين: طرف يمثل الطموح وطرف يمثل القدرة».. وقصد بالطرف الأول جيل الشباب.. وقصد بالطرف الثانى القوات المسلحة.

لكن.. الرجل الذى لم يرد أن «يفتح فمه» لأنه قال «بما فيه الكفاية» تكلم بكثافة لم يتكلم بها من قبل.. وأفرط فى أحاديث كان يقيدها من قبل.. لقد تحدث عن السكوت الذى يجب فرضه على جيله بعد أن تكلم كثيرا ولم يفد إلا قليلا.. لكنه لم يتوقف عن الثرثرة.. فى حالة من الازدواجية بين تبرير الفعل بالقول اشتهر بها منذ سنوات بعيدة.

ولو لم يجد هيكل فى سلطة ما دسما أو شحما أو خيرا فإنه لا يتردد فى أن يقلب الحقائق للنيل منها.. ليظهر فى صورة البطل المعارض.. وبقدرته الفائقة على التعبير ينجح دائما فيما يريد.

والحقيقة أن هيكل بعد غياب ثلاثين سنة فترة حكم مبارك عن السلطة اشتاق إليها.. لقد أفقده الغياب عنها الكثير من التميز.. فلم يعد ينفرد بالحصول على الوثائق والخبايا.. ولم يعد يطلع على الخبر قبل نشره.. فتراجع إقبال الناشرين الدوليين على كتاباته وكتبه.. ولم يعد أمامه سوى السوق المحلى.

ويفسر ذلك ذهاب هيكل إلى مرسى والسيسى رغم تناقض الرجلين.. فهيكل يبحث عن سلطة دون وضع اشتراطات مسبقة قبل الذهاب إليها.

ولو كانت كتبه الأخيرة بنفس قيمة كتبه القديمة لتُرجمت.. ولو إلى لغة أجنبية واحدة.. غير اللغة العربية.

بل.. إن كتبه الأخيرة لا تزيد عن تجميع لحوارات صحفية أو تلفزيونية سبق أن أدلى بها.. قدمها بسرعة وخفة كما أوضحت من قبل.. وكما سأوضح فيما بعد.

■ ■ ■

جمعتنى رحلة سفر مع محمد عبد السلام المحجوب.. رجل المخابرات البارع الذى واصل بخبرته صعوده فى الجهاز حتى وصل إلى رئاسة هيئة الخدمة السرية.. الهيئة المسئولة عن العمليات الخارجية وتجنيد العملاء ووضعهم تحت سيطرته.. وتختلف هذه الهيئة عن هيئة الأمن القومى المسئولة فى الجهاز عن مواجهة نشاط التجسس الخارجى فى الداخل.

ظللت طوال ساعات السفر صامتا إلا قليلا أستمع منه لكثير من رواياته عن ما قام به من عمليات خطرة دون أن يكشف ما عليه كتمانه.. ودون أن أخفى انبهارى ليس فقط مما قال وإنما لقدرته المذهلة على كتمان ما أنجز لوطنه دون تجارة أو دعاية.. دون مكسب أو مغنم.. ولو قورن بما فعل غيره لدخل فى زمرة الأولياء والقديسين.

ولعلها فرصة أن نعرف من أسرار الرجل ما خفى عنا قبل أن نرصد مبرر إقحام هيكل طرفا فيها.

لقد كان المحجوب ملحقا شابا فى عمان عندما تلقى برقية مشفرة من جمال عبد الناصر يطالبه فيها بإحضار ياسر عرفات إلى القاهرة لحضور القمة الطارئة التى عقدت على أثر القتال الشرس الذى دار بين قوات المقاومة الفلسطينية والجيش الأردنى فيما يعرف بأحداث أيلول الأسود.. فى سبتمبر 1970.. قبيل رحيل عبد الناصر بأيام قليلة.

كانت القمة قد اختارت ثلاث شخصيات عربية (سعد العبد الله ولى عهد الكويت والباهى الأدهم رئيس وزراء تونس وجعفر نميرى رئيس السودان) للسفر إلى عمان والتفاوض مع ملكها لتهدئة الأمور.

فى ذلك الوقت قام المحجوب بنقل عرفات إلى بيت آمن (سيف هاوس) داخل حدود مبنى المكتب الثقافى المصرى.. ودعا المحجوب وفد الجامعة العربية لمقابلة أبو عمار بحجة زيارة المحجوب فى المكتب الثقافى.. وهناك.. طلب المحجوب من عرفات التخلص من

ملابسه المميزة التى اشتهر بها فى ذلك «الحطة» أوغطاء الرأس الفلسطينى- ونزع عنه مسدسه ليرتدى أبو عمار ملابس تشبه الملابس الخليجية.. واستأذن سعد العبد الله فى «غطرته».. وعندما نقلت السيارة الوفد إلى المطار لم يلحظ أحد أن من بين رجاله كان يمشى عرفات الذى صعد إلى الطائرة ووصل القاهرة وشارك فى القمة وسط ذهول الجميع الذين فوجئوا بأنه يدخل عليهم.. ولكن.. بعد أن استرد مسدسه وغطاء رأسه الفلسطينى.

لم يكن من السهل تقبل المخابرات الأردنية لما فعل المحجوب فاعتبره الملك حسين شخصا غير مرغوب فيه.. وغادر المحجوب عمان مع زوجته وطفلتيه بالسيارة إلى سوريا.. وفى الطريق تلقى اتصالا من شخصية مخابراتية شهيرة سمع منها أنه مرحب به فى الأردن دائما.. لكن.. كزائر فقط.. وأضاف: «ولو كان جلالة الملك فى عمان لقام بوداعك بنفسه».

هنا سألت المحجوب: هل يتعرض ضابط المخابرات للانتقام بعد قيامه بعمليه ناجحة ولو بعد حين؟

وكان مبرر السؤال ليس فقط ما حدث فى عمان ولكن الأهم ما حدث فى ميونخ.. وللتذكرة.. فإن الفلسطينيين هاجموا فرقًا رياضية إسرائيلية كانت تشارك فى دورة ألعاب فى ميونخ.. وأشير من بعيد إلى دور للمحجوب.. ومن هنا كان السؤال.

أجاب: إن هناك اتفاق «جنتلمان» بين أجهزة المخابرات المختلفة ولو كانت متصارعة بعدم تعريض ضباطها إلى تصفيات أو اغتيالات بسبب عملهم.. فلو فتح هذا الباب فلن نجد ضابط مخابرات واحدًا على قيد الحياة.

وسألته: هل بالخبرة أو بالغريزة يشم ضابط المخابرات منافسيه من ضباط مخابرات الأجهزة الأخرى؟

أجاب: بالتأكيد.

وروى أنه كان مرافقا للسادات فى رحلة إلى ألمانيا عندما التقى فى لوبى الفندق برجل من البرازيل عرف على الفور أنه رجل مخابرات.. لقد جاء مكلفا من المخابرات الأمريكية ليتابع الرحلة تحت غطاء جنسيته البعيدة عن الشك.. وهو أمر معتاد بين الأجهزة التى تتعاون مع بعضها البعض.

وفى نفس الفندق التقى المحجوب بتاجر سلاح ألمانى من أصل تركى سبق أن سمحوا له بتصوير السفارة السوفيتية فى القاهرة مقابل تسليمه وثيقة تؤكد أن ألمانيا ستمنح إسرائيل مليار فرنك بينما لن تعطى مصر سوى 250 مليون فرنك.. وحمل المحجوب الوثيقة إلى السادات.. وفى المفاوضات وضع السادات الوثيقة على المائدة المشتركة مع الألمان.. وخرج من الباب وقد حصل على 750 مليون فرنك.. ثلاثة أضعاف ما كان مقررا.

وامتدت رحلة السادات من ألمانيا إلى إيطاليا.. وقبل أن يهبط المحجوب إلى روما شاهد فى صحيفة إيطالية تصدر بالإنجليزية تصفحها فى الطائرة صورة للمهبط الذى ستنزل عليه طائرة السادات.. وكشفت الصورة عن ثغرات فى المكان المحاط بمساحات شاسعة من الخضرة يمكن منها «التنشين» على السادات وهو يغادر الطائرة.. وبعد التنبيه على السلطات المضيفة تغير مكان الهبوط.

ولعب المحجوب دورا مؤثرا فى قضايا عرفها المصريون عبر الدراما التلفزيونية.. مثل قضية رأفت الهجان.. وقضية جمعة الشوان.. وهنا يذكر بالفضل ضابط مخابرات أكبر وأهم هو محمد نسيم.

ونأتى إلى قضية مفصلية فجرت جدلًا لم يتنه حتى الآن.. قضية أشرف مروان.

لقد كنت أول من فجر هذه القضية فى الصحافة العربية فى «صوت الأمة» وقت أن كنت رئيسا لتحريرها.. واستندت إلى ما نشر عنها فى الخارج بداية من بريطانيا نهاية بإسرائيل مرورا بالولايات المتحدة.. وفشلت فى لقاء استمر ساعتين مع أشرف مروان جرى فى مكتبه بالقرب من بيت مبارك أن أقنعه بأن يتكلم.

ظل يراوغ عارضا على مستندات حصل عليها من الأرشيف القومى فى واشنطن فى محاولة بائسة لإبعادى بإغراء المستندات التى تكشف عن جوانب خفية فى العلاقات المصرية الإسرائيلية ولكنه فشل.

كما أنه ودون مبرر أضاف: «ألم يتهموا صديقك هيكل بالعمل مع المخابرات الأمريكية؟ هل صدقت ذلك؟».

أجبت: «لم أصدق.. ثم إن هيكل ليس موضوعنا.. موضوعنا التهمة التى تفجرت فى وجهك من الإسرائيليين.. وهو أمر يحتاج منك إلى توضيح».

وما أن شعر بأن الخناق يضيق عليه حتى قال: «إن ما نشر عن عملى مع الموساد قصة بوليسية رديئة ورخيصة».

وراحت الوثائق الإسرائيلية تطعن فى وطنية الرجل إلى حد أننى بت مقتنعا بأنه كان جاسوسا خالصا للموساد.. خاصة أن المحكمة العليا فى إسرائيل أقرت ذلك.. فى حكم واضح.. انتهى بعد أسابيع قليلة بوفاة مروان سقوطا من شرفة بيته فى لندن.. وأثارت الواقعة لبسا بين انتحاره أو اغتياله؟. وراحت الاجتهادات تتوالى دون حسم.. وهذه طبيعة مثل هذه الجرائم.

والأخطر.. أننا لم نجد من الجانب المصرى من يبرئه أو يدافع عنه إلا بيانا من مبارك يتحدث عن خدمات قدمها مروان لوطنه.. دون أن يذكر متى قدم بالتحديد هذه الخدمات؟. قبل أو بعد تجنيده لخدمة الموساد؟

وسألت هيكل مباشرة عن تصوره.. وكان أميل إلى الشك فى مروان بما يجنح إلى إدانته.

ودعم ذلك أن منى عبد الناصر ذهبت إلى سامى شرف تطلب منه شهادة بأن والدها كان على علم بتجنيد الموساد لزوجها.. وعندما رفض سامى شرف طلبها تصرفت معه بما لا يليق.

وما ضاعف من قناعتى بالإدانة أن مروان لم يكن ليتردد فى اللجوء إلى القضاء عند أول إهانة توجه إليه ولو كانت عابرة من عضو فى مجلس إدارة رابطة الجالية المصرية فى لندن فكيف يسكت على تهمة بكل هذا الثقل التعويض فيها يكون بالملايين؟

ومن جانبى.. كنت مستعدا لتغيير وجهة نظرى لو وجدت ما يفندها.. ويرد عليها.. فليس بينى وبين الرجل ما يدفعنى إلى التعسف فى اتهامه رغم أنه لم يكن فوق مستوى الشبهات منذ أن انحاز إلى السادات بعد انقلاب مايو إلى أن تورط فى تجارة السلاح مرورا بوصف «الطفل المعجزة» الذى أطلق عليه.

سألت المحجوب عن مروان ففاجأنى بما يشبه الصدمة:

«لقد تعرض أشرف مروان إلى ظلم فى تهمة العمالة للموساد دون أن يجد من ينصفه».

سكتّ غير مصدق!

أضاف المحجوب:

«الإسرائيليون حاولوا تجنيده أيام عبد الناصر ولكن عبد الناصر رفض.. وعندما اقترب مروان من السادات تكرر العرض الإسرائيلي ووافق السادات.. يعني.. عمله مع الموساد كان بعلم رئيس الدولة».

قلت: «لكن.. الإسرائيليون يقولون إن تجنيده بدأ في عام 1968.. قبل رحيل عبد الناصر».

قال: «الأدق أنهم عرضوا عليه العمل معهم في ذلك الوقت ولكن عبد الناصر رفض أن يكون زوج ابنته عميلا مزدوجا».

قلت: والسادات وافق؟

قال: نعم.

سألت: لماذا؟

قال: كان كل هم السادات تضليل الإسرائيليين.. فيما يعرف بخطة الخداع الاستراتيجي.. خاصة في تحديد ساعة صفر الحرب.. فقد أبلغ مروان الموساد بأن موعد الحرب في السادسة مساء يوم 6 أكتوبر.. ولكنها بدأت في الثانية ظهرا.. كان السادات في حاجة لتلك الساعات الستة ما بين إعلان الحرب وتعبئة الاحتياط في إسرائيل لضمان العبور بنجاح.

قلت: لكن.. السادسة مساء كان الموعد الأصلي للحرب ثم جرى تعديله إلى الثانية ظهرا.

قال: هذا صحيح.. لكن.. مع السادات كان كل شيء قابلًا للتعديل.

ويعترف المحجوب بأنه هو من قام بتدريب وتشغيل مروان.. لكن.. ليست هناك كما أضاف وثائق في المخابرات المصرية أو في رئاسة الجمهورية تدل على ذلك.

إن شهادة المحجوب.. الشهادة الوحيدة التي تسند أشرف مروان.. وتثبت أنه لم يكن جاسوسا خالصا وإنما عميل مزدوج «دبل إيجنت».. وأنا أسجل هذه الشهادة وأنشرها

لأول مرة رغم أنها تعارض كل ما تصورت.. على أن الحقيقة المجردة عندى تعلو فوق كل حسابات أو شبهات.

وأضاف المحجوب: لقد عرفت اسم ضابط التشغيل الذى كان مسئولا عن أشرف مروان من أحد أصدقائى فى المخابرات المركزية.. اسم الضابط الإسرائيلى هو راف إيتان.

وفيما بعد.. قابل المحجوب مروان صدفة فى لوبى فندق شيراتون الجزيرة.. فندق سوفتيل حاليا.. ساعتها نصحه بأن يكف عن تجارة السلاح حتى لا يلقى مصير على شفيق فى لندن.. ولكنه.. على ما يبدو كان متورطا فى تلك التجارة حتى الموت.

فى كتابه الأخير تناول هيكل «مسألة أشرف مروان».. واستند مثلى على وثائق جهات خارجية.. لكن.. لا أعرف هل سأل هيكل المحجوب عن تلك القضية أم تغافلها؟. هل أقر المحجوب لهيكل بما سمعت منه وتجاهل هيكل شهادة المحجوب أم لم يتصور أن المحجوب كان طرفا مباشرا فى المسألة.. وتلك الأسئلة سببها أن هيكل سأل المحجوب فى عملية مخابرات أخرى.. سمعها منه بالتفصيل.. وإن كنت فى النهاية لا أتصور أن الحوار الممتد بينهما فى مكتب هيكل لم يتطرق إلى حقيقة قضية مروان.

كان رأى هيكل فى قضية مروان كما كتب: «إن كرامة البلد وسمعة أشرف مروان نفسه تتطلب تحقيقا رسميا مصريا فى الموضوع بواسطة هيئة رفيعة المستوى تضم عناصر قضائية وبرلمانية على أن تمثل فيها المخابرات العسكرية والمخابرات العامة فى مصر وظنى أنه بدون ذلك لا تستقيم الأمور».. وكان عند هيكل كل الحق فيما اقترح.

على أن هيكل على ما يبدو اهتم بقضية مروان ليستخدمها من جانب آخر فى طعن مبارك.. فحسب ما كتب فإنه التقى مروان فى لندن الغائب عن مصر أكثر من سنة ونصف السنة.. وقال له:

أنت لم تأت إلى القاهرة طوال هذه المدة ولا أعرف إذا كنت ممنوعا من المجىء لها بطلب من مبارك الذى نصحك بالسفر منها أثناء لقاء معه فى ضريح عبد الناصر؟

وكان رد فعل مروان عنيفا:

هو (مبارك) لم يطلب منى أن أسافر كما يشيعون فى القاهرة وهو لا يستطيع أن يمنعنى.

وسأله هيكل:

ولماذا لا يستطيع.. ألا يملك سلطة؟

هو لا يملك أى سلطة وهو لا يستطيع.. أقولها لك لأنه يعرف أنى أستطيع أن أدمره.

ولم يقل مروان كيف يستطيع أن يدمر مبارك.. ولم يسأله هيكل.. بل إن هيكل ظل محتفظا بتلك الرواية لم يهمس بها إلى أحد حتى نشرها بعد رحيل مبارك عن الحكم ورحيل مروان عن الحياة.. فى حالة إضافية من حالات البطولة المؤجلة.. ولم تخل القصة بالقطع من الإيحاء بعلاقة ما خفية بين مبارك ومروان فى دائرة تجارة السلاح.. فما الذى يستطيع به مروان تدمير مبارك سوى تلك التجارة؟

ونأتى إلى القصة التى سأل فيها هيكل المحجوب عن تفصيلها قبل نشرها فى الكتاب.

لقد وضعت خطة لغزو إيران شاركت فيها أجهزة مخابرات عربية مع جماعات إيرانية لاجئة فى باريس بعضها تابع لآخر رئيس وزراء فى عهد الشاه وهو شاهبور بختيار ومعهم جماعة مشايعة للأميرة أشرف.. الشقيقة التوأم للشاه.

كانت الخطة تحديد مكان ما على ساحل عمان يجرى منه غزو إيران.. وسافر المحجوب إلى عمان وقصد شواطئها الشمالية للرصد والاستطلاع وتحديد أصلح نقطة للغزو.. لكنه.. بعد أن درس كل شىء توصل إلى أن تنفيذ الخطة مستحيل لأنه ليس هناك على الجانب الإيرانى استعدادات كتلك التى تتحدث عنها «جماعة باريس».

وصدرت الأوامر إلى المحجوب بالسفر إلى واشنطن ليلتقى بخبراء وكالة المخابرات المركزية «بغرض التنسيق وتذليل العقبات».

وبالفعل حضر المحجوب اجتماعات فى الوكالة رأسها مدير الوكالة بنفسه.. وهناك أبدى المحجوب شكوكه فى نجاح العملية.

وسأله مدير الوكالة: «هل اعتراضك على العملية سياسى أم فنى؟».

فأجاب المحجوب بما يؤكد أن العملية ليست لديها فرصة للنجاح على الأرض.. فليس على الشاطئ الإيرانى من ينتظر من الرجال القادمين للمساعدة ولا السلاح المكدس للقتال وليست لدى قبائل بختيار نية للمشاركة.

هذا هو ملخص العملية كما رواها هيكل على لسان المحجوب.. لكن.. هيكل أضاف إليها: «وكتب عبد السلام المحجوب تقريره وكان الرد نقله محافظا للإسكندرية».

لكن.. ذلك حسب ما سمعت من المحجوب فيما بعد لم يكن صحيحا.. فهو لم يترك مكانه فى الخدمة السرية بسبب تقريره الفنى الذى يؤكد فشل العملية.. بل على العكس حصل على ترقية أعلى.. أما تركه للخدمة فهو أمر معتاد تفرضه طبيعة الجهاز وقواعد العمل فيه عند وصول قياداتها إلى سن التقاعد.. خاصة أن مبارك لم يكن قد أوصى بطلب من عمر سليمان تعديل قانون المخابرات بما يسمح ببقاء بعض القيادات فى الخدمة بعد سن المعاش.

لقد أراد هيكل الانتقام من مبارك ولو على حساب الحقيقة.. كما أن هيكل لم يتحرّ الدقة فيما جرى للمحجوب.. فهو لم ينقل محافظا للإسكندرية بل عين محافظا للإسماعيلية قبل أن يتولى المسئولية فى الإسكندرية.

ولو شاء الطعن فى مبارك فإن الواقعة المناسبة واقعة نقل المحجوب من الإسكندرية رغم نجاحه فيها إلى وزارة التنمية المحلية وهى وزارة بلا اختصاصات واضحة.

لقد رفض المحجوب هدم مستشفى الشاطبى تنفيذا لرغبة سوزان مبارك لاستخدام أرضه فى إنشاء مبان ملحقة بمكتبة الإسكندرية.. وهو ما أثار غضب السيدة الأولى فلم يهدأ لها بال إلا بعد إخراجه من الإسكندرية.

وكانت هناك واقعة أخرى أشد.. أن المحجوب رفض تزوير الانتخابات البرلمانية فى عام 2005.. وهدد مدير مباحث أمن الدولة فى الإسكندرية بأنه لو تدخل بالتزوير فإنه سيكشف الجريمة عبر وسائل الإعلام.

وأتصور أن الواقعتين كانتا السبب فى نقله من الإسكندرية.. لكن.. هيكل كان متعجلا فى التنشين على مبارك برصاصات صوت بينما بالقرب منه رصاصات قاتلة.

■ ■ ■

تعرضت فى المقال الثانى بعد ذلك إلى القضايا الجنائية التى اتهم فيها أحمد وحسن هيكل مستندا إلى وثائق قضائية يصعب الطعن فيها.. وأتصور أن المساحة العريضة التى يتيحها الكتاب تسمح لنا بعرض هذا الجزء فى فصل مستقل.. عارضا المستندات.. وشارحا المبررات.

■ ■ ■

أنهيت المقال قائلا:

«لست أقصد بما كتبت الطعن فى هيكل.. ولا أن أنال منه.. بل العكس.. أردت أن يراجع نفسه.. ويحتفظ دون مساس بما حقق من مكاسب أدبية وغيرها.. دون أن يفتح فيها بنفسه ثغرات صعب سدها.. فربما لا يمنحه الزمن -كما قلت- فرصة أخرى.

وربما جرأة منى أن اتطوع بذلك.. لكننى أخشى أن يجد من يستمع إلى هيكل.. ويأخذ بنصائحه التى لم يستفد منها سواه.. ودفعت مصر فيها ثمنا غاليا.. لا تقدر أن تدفع المزيد منه فى ظروفها الحالية.. فنحن نمشى على سلك رفيع معلق فى الهواء.. لن يوصلنا إلى بر الأمان إلا بأفكار متطورة.. تنفض عن نفسها ما علق بها من تجارب سيئة تسبب فيها الكبار.. حسب القاعدة الإدارية الشهيرة: إن من كان سببا فى المشكلة لا يمكن أن يكون جزءا من الحل.

بصراحة أكثر أخشى أن تقع قيادة ما بعد 30 يونيو فى براثن هيكل.. وتؤثر بسحره.. لتجد نفسها بعد طول تجارب مع هيكل تكرر نفس الأخطاء التى وقع فيها من سبقوها.

وربما.. وجهت لنا تلك القيادة اللوم بعد أن تقع الفأس فى الرأس قائلة: إننا السبب.. فنحن نحب هيكل.. ولم نتعرض له من قبل بالنقد.. وأنها على هذا الأساس قربته واستمعت لنصائحه.. وربما أضافت: أننا لم نحذرها فى الوقت المناسب.. أو نضئ لها إشارة حمراء واحدة.. ولو من بعيد.

لقد ضحيت بعلاقتى بهيكل من أجل أن ننقذ الوطن مما قد يصيبه.. كان من الممكن أن أسكت.. وأواصل حياتى بسلام.. دون اتهامات.. لكننى أعرف أن الثمن الباهظ الذى دفع فى إزاحة الإخوان لا يزال يدفع.. ولست مستعدا مهما نالنى من أذى أن تترك

الأمور لنصائح قديمة فى وقت نحتاج فيه إلى ابتكارات متجددة ربما تنجينا مما نحن فيه.

ولا يعنى ذلك أننى أفرض وصاية على أحد.. فلست أملك سوى كلمات قد تصيب أو قد تطيش.. لست أملك سوى رأيى.. أما القرار فهو ملك غيرى.. يتحمل مسئوليته وتبعاته اليوم أو بعد ألف سنة.

فى مسرحيات شكسبير الخالدة عبارات فرضت نفسها علىّ بقوة وأنا أرسو بما أكتب على بر نهاية المقال.

الحقيقة تطهرنا.. الخيال والواقع أكثر قربا معا مما نتصور.. لكنهما لا يلتقيان.. كلنا نختار.. خياراتنا حياتنا.. هل يتقبل كل منا حياته.. ربما تكبر.. ربما تنجح.. لكن.. هل تصدق نفسك؟. حين تكون وحدك هل تعرف النوم بضمير مستريح؟

4

سيارة خربة تائهة في الصحراء